وحيد الدين خان



حكمة الدين

تفسير عناصر الإسلام ومقتضياته



كتاب المختار

١٠ صفية زغلول - القصر العيني - الدور الرابع
شقة ٢٣ - ت: ٣٥٦٢١٣٥ - القاهرة



بسم الله الرحمن الرحيم

ولم يضطر يوسف عليه السلام للقتال لأن حاكم عصره ، بالرغم من بقائه على الشرك ، أصبح يثق فيه عليه السلام . وأشد سوء فهم وقع فيه مصلحو هذا العصر أنهم لا يتصورون الجهاد والتضحية خارج نطاق القتال ، بالرغم من أن (الدعوة) هو أكبر جهاد : « لعلك باخع نفسك ألا يكونوا مؤمنين » .

ان الامكانات الجديدة للدعوة والوسائل الحديثة فى هذا العصر قد شملت مواقع وفرصا واسعة للدعوة ، لم تكن متاحة قبل العصر الحديث .

ان الجهاد هو العبادة الكبرى ، ولكن الميدان الأساسى لاظهار رغبتنا فى الجهاد هو (الدعوة) وليس القتال بدون توفر المبررات له .

ومن ناحية أخرى ، فان المؤلف لم ولن ينكر الجهاد القتالى ، الذى يعتبره جزءا من جهاد المؤمنين لنشر الدعوة الاسلامية . ولو اقتضت الظروف الجهاد القتالى وجب ذلك على المسلمين مثل الأجزاء الأساسية فى الدين ، وهو أمر أكد عليه المؤلف غير مرة فى هذا الكتاب ، راجع الصفحات ٤١ ، ٦٢ ، ٦٩ ، ٧٦ ، ٨٤ .

كلمة المؤلف

ان الدين يتألف من جزاين رئيسيين : احدهما جانبه **النفسى** ، وثانيهما جانبه **الخارجى** . واقصد بالجانب النفسى ما نسميه بالخشوع والخضوع والتقوى والعلاقة بالله . اما الجانب الخارجى من الدين فالمراد منه : الأعمال المتعلقة بالأعضاء والجوارح ، التى يؤديها المؤمن فى العالم الخارجى . وقد اصطلح العلماء لبيان هذين الجانبين بأن قالوا : ان الأعمال الاسلامية قسمان : اعمال روحية ، واخرى بدنية . اذن .. ما هى العلاقة بين هذين الجانبين ، أو التوأمين من الأعمال الاسلامية ؟ انه سؤال جد هام وحيوى ، والحياة الاسلامية الصحيحة تتوقف على معرفة كلا الجانبين معرفة دقيقة . وبسبب الحقب الطويلة التى مرت بالمسلمين بين مد وجزر وحكم واستعباد قد وقعنا فى افراط وتفريط فى نظرتنا تجاه الدين . فبعض الناس يعطون الأهمية للجانب الروحى من الاسلام ، بينما البعض الآخر يميل الى جانبه الخارجى . ان الميل الى وجهة النظر الأولى يذهب بأصحابه الى تصور دينى حيث لا يميز الاسلام شىء عن الأديان الروحانية الأخرى . وعلى النقيض من ذلك تطرف البعض الآخر فأعدوا فى تفسيرهم للدين خريطة سياسية ، حتى يبدو للانسان أن الاسلام نظام سياسى مثل سائر النظم السياسية الأخرى .

وفى هذه الحالة من الافراط والتفريط فى تصور الجانبين ـ الروحى والسياسى ـ من الاسلام يجب علينا أن نبحث عن التفسير الصحيح والمتزن للدين حتى لا نقع فى محظور ، هو تحريف الدين ، وحتى يحتفظ الاسلام بجوهره وأصالته . وهذا الكتاب محاولة متواضعة للاسهام نحو هذه الغاية . والله هو الموفق .

وحيد الدين خان

دلهى ، فى ابريل ١٩٧١

الفصل الأول

ما هو التفســـير ؟

« ان قضية العيش من اهم القضايا ! ويجب أن يكون فى مستطاع كل فرد من أفراد المجتمع أن يحصل على لقمة عيشه بمنتهى الحرية ، ويجب الا يسمح لأحد باستغلال الآخرين ماليا أو اقتصاديا ! » انها قضايا ليس بوسع أحد انكارها ، ولكنها حين تتحول الى مذهب الماركسية ، يجد الانسان نفسه مضطرا لمحاربته .

وما السبب وراء هذه المعارضة ؟ لا شيء سوى حقيقة واحدة هى أن العيش والاقتصاد حقيقة بسيطة غير معقدة ، الا انها تتحول فى هيكل الفكر الماركسى الى فلسفة متكاملة ، فيصبح الاقتصاد تلقائيا القضية الأساسية للحياة ، بدلا من أن يبقى فى مكانته الأصلية كقضية عادية من قضايا كثيرة تتعلق بالحياة وتؤثر فيها . ولكن عندما يصبح الاقتصاد قضية القضايا ، يبدأ الماركسيون فى ضوئه شرح جميع وقائع الحياة والبشرية ، وفى ضوئه أيضا تتحدد اهمية مختلف الجماعات والأفراد والقضايا .. ويصبح الاقتصاد هو محور كل الصراعات والجهود ، فيتلون كل جهد فكرى وعملى بلون الفكر الجديد . وليس معنى هذا ان جوانب الحياة الأخرى تنعدم بعد قبول التصور الماركسى ، بل هى جميعا تصبح توابع عادية للقضية الأساسية ـ الاقتصاد ـ وتفقد معنويتها خارج اطار ذلك الأساس .

ان الأفكار الاشتراكية لم تظهر فى أوروبا ، فى بداية الأمر ، الا بصورة وقتية نتيجة للظروف الاقتصادية التى نتجت عن الثورة الصناعية . فقد أساء استخدام التكنولوجيا فى الصناعة الى حياة العامة ، وخصوصا طبقة العمال منهم ، وقد أحزنت هذه التطورات عقولا كثيرة فعكفت على التفكير فى الوسائل والاصلاحات التى تجعل

اللاراسماليين الفقراء أيضا يشتركون فى ثمرات الثورة الصناعية ، فيكون نصيبهم مماثلا لنصيب الرأسماليين . فالاشتراكية فى فجرها كانت قيمة اقتصادية فقط .. ومهما كانت قيمة الفكر فانه لا يقوى ، ولا يستقطب الأنصار ، الا اذا أدخل اليه عنصر المبالغة ، وحينئذ فقط يؤثر ذلك الفكر فى عامة الناس . ومن هنا دخل العنصر النفسى الدعائى والثورى الى أحاديث المفكرين الأوائل فأضفى على دعوتهم الاصلاحية عنصر الاثارة والمبالغة ، ومضى بهم الأمر حتى أقاموا فكرا سياسيا متكاملا ، أساسه ومحوره : الاقتصاد . وقد أصبح كل شيء فى الأرض والانسان ، تابعا للاقتصاد . وماركس هو الحد الفاصل بين الاشتراكية النظرية « الخيالية » لأسلافه وبين الاشتراكية العلمية التى نزل بها هو .

ولم يكن هناك ما يضير من الاشتراكية ما دامت تبغى الاصلاحات الاقتصادية وتطالب برفع الظلم عن كاهل العمال والفقراء والبائسين ، ولكنها أضحت فكرا خاطئا حين لبست ثوب الأفكار الماركسية « العلمية » .

وهذا الأمر ذاته يمكن أن يحدث فيما يتعلق بالدين . فقد تكون قيمة معينة من قيم الدين تتعرض للاهمال فى عصر ما ، ويثير ذلك عزيمة فى نفس بعض المصلحين فيسعى لاحياء تلك القيمة المهدورة . ان ضرورة الاثارة ومصلحة الدعوة كلتيهما تقتضى المبالغة فى تبيان أهمية تلك القيمة الضائعة من قيم الدين . ومن الطبيعى أن المصلح ، الذى يريد احياء تلك القيمة ، لا يستخدم فى أحاديثه مصطلحات الفقه والمنطق ، ولكنه يلجأ الى لغة الخطابة والبيان والدعوة . انه يخاطب المشاعر ويتحدث الى القلب . ومن الواضح أن الكلمات التى تخرج لمقتضيات الدعوة لا تكون كلمات موزونة ، منطقية ، فقهية ، بل هى عبارات أريد بها هز المشاعر ، باستغلال الكلمات المثيرة ..

لقد حدث مالك بن انس أن بردا ـ مولى ابن المسيب ـ قال لسعيد بن المسيب :

« ما رأيت أحسن ما يصنع هؤلاء ؟ قال سعيد : وما يصنعون ؟

قال : يصلى أحدهم الظهر ثم لا يزال صافا رجليه يصلى حتى العصر .

فقال سعيد : ويحك يا برد ! **أما والله ما هى بالعبادة ! تدرى ما العبادة ؟ انما العبادة التفكر فى أمر الله ، والكف عن محارم الله (١) .**

ومن البديهي أن عالما عظيما وعبدا تقيا كسعيد بن المسيب لم يكن يجهل أهمية الصلاة والصوم والذكر وتلاوة القرآن . انمقاله هذا ، موجه فى حقيقة الأمر لغرض الدعوة ، ووراءه خلفية معينة ، وهو ليس بمقابل فقهي أو منطقى . ان الفقيه عندما يتحدث عن شيء ما يتناوله كقضية شرعية ، ويوضح الأحكام فى صورتها الأصلية . ولكن « الداعى » لا يتوخى الشرح العلمى والقانونى للقضية ، بل كل همه هو الاصلاح وحسب ، ولذلك يبحث الداعى عن القيم التى تتعرض للاهمال فى الحياة الاسلامية فى عصره ، ثم يركز كل اهتمامه على تلك القيم ، دون غيرها ، وهو لذلك الأمر نفسه يقوم بالمعالجة المفيدة للقضية ، دون المعالجة الفقهية والقانونية ، فيركز حديثه على ذلك الجزء ، أو على تلك الأجزاء ، من القضية التى هى فى حاجة وقتية للمعالجة والاهتمام من وجهة نظره . والداعى يميل الى حذف الأجزاء الأخرى من القضية او الى عدم التركيز عليها ، حينما يرى أنها ليست فى حاجة الى الاهتمام الفورى بها .

وأسلوب الداعى هذا هو عين أسلوب الاسلام . ونحن نجد امثلة له فى سنة الرسول الكريم صلى الله عليه وسلم وعند جميع دعاة الاسلام من بعده . فالحقيقة أن الاسلام لا يمكن نشره ، ولا يمكن اصلاح أحوال المسلمين دون الاعتماد على هذا الأسلوب من الدعوة .

(١) الطبقات الكبرى ، لابن سعد ، دار صادر ـ دار بيروت ١٩٥٧ ، المجلد الخامس ، ص ١٢٥ .

والأمر الى هذا الحد صحيح ، بل هو مطلوب ومرغوب فيه . ولكن بعض الدعاة ، أو مريديهم من بعدهم ، لا يفتأون أن يقعوا فى محظور الاعتقاد بأن الكلمات التى خرجت من ألسنتهم لا تتمتع بقيمة الدعوة فحسب ، بل هى تفسير مطلق للدين . ومن هنا تبدأ أخطاؤهم . وعلى سبيل المثال ، يعرض أحد المؤلفين على أحد الدعاة فكرة نشر كتب اسلامية ليخدم بها دينه ، فيرد عليه الداعى : « الكتب لا تنفع فى شيء ! انك ستؤلف كتبك جالسا ، والناس سوف يقرأونها مستلقين على سررهم ! » .

ان هذه الجملة تستند الى خلفية معينة للمؤلفين والقراء . ولكن لو اعتقد أتباع هذا الداعى أن مقاله انما هو حقيقة مطلقة فى عمل الدعوة ، ومن ثم ينبذون نهائيا بند التأليف والنشر من فهرس نشاطهم الدعائى ، فان عملهم هذا سيعنى انهم قد اتخذوا حقيقة وقتية ـ تمتعت فى وقت ما بصدق جزئى ـ فحالوها الى حقيقة دائمة مطلقة . والمفهوم الذى كان صائبا فى خلفية معينة ، يصبح فى شكله النهائى مفهوما خاطئا يعود بالضرر على حركة الدعوة .

وهذا الخطأ يتخطى أحيانا هذه الحدود ، فيتقمص صورة عامة بدلا من كونه خطأ محليا فى مجتمع محدود . ففى بعض الأحايين يتملك فكر ما من نفس الداعى فلا يلبث أن يزعم بأن الجزء الذى أراد التركيز عليه انما هو الحقيقة الكلية بعينها فى هيكل الدين . ومن هنا ينطلق يشرح ويفسر الدين كله فى ضوء فكره الوقتى . وهو لا يكتفى عند هذا الحد بالتركيز على ذلك الجزء فحسب ، بل يجعله على رأس القضية ، ويبدأ يلاحظ كل الأخطاء والحسنات من خلال منظاره الجديد . وعند هذه النقطة يصل الخبر الى آخر مداه . والشيء الذى كان جزءاً من الدين ، وربما كان جزءاً اضافيا منه ، يصبح ذلك الشيء أو الجزء هو كل الدين ، بل أصل الدين فى الهيكل الفكرى الذى شيده ذلك الداعى ، وبعبارة أخرى فان قضية المعاش تتحول الى الماركسية . ونحن نعرف أن القضية الماركسية خاطئة كليا فى تفسيرها ، بالرغم من أنها تتناول قيمة هامة من قيم الحياة .

ولنفهم هذا فى ضوء مثال بسيط . لنتصور أن رجلاً ينظر بامعان الى شيء أصفر . ثم لنتصور ذلك الرجل مرة أخرى ، وهو يلبس نظارة ذات زجاج أصفر أو أنه قد أصيب باليرقان (الصفراء) . فسوف نجد أن الناظر فى حالته الأولى ربما لا يرى شيئا لبعض الوقت سوى الصفرة بسبب تركيزه فى المشاهدة . ولكن حالته هذه ستزول بمجرد انتهاء تركيزه على الشيء الأصفر أو بادارته عينيه الى مكان آخر .. فانه حينذاك سيرى الأشياء فى الوانها الحقيقية . ولكن الرجل فى الصورة الثانية لن يرى شيئا سوى الصفرة ، لأنه يلبس نظارة صفراء أو لأنه مصاب باليرقان . فهو فى هذه الحالة سيشاهد كل الأشياء ، ولكن بلون واحد ، أصفر ، ولن يرى لونا آخر سواه .. !

ما الفرق بين التركيز على شيء من وجهة نظر الدعوة ، وبين تحويل ذلك « الشيء ـ الجزء » الى تفسير كامل ؟ لنفهم هذه القضية من مثال آخر . لنفترض أن رجلا يقول :

« لكي يكون المسلم مسلما ، يجب أن يخلق فى نفسه روح الجندية ! » .

ان هذه الجملة تحمل الكثير من المبالغة ، حيث انه من المستحيل على كل مسلم أن يصبح جنديا ، فليس كل المسلمين رجالا وشبانا ، بل بينهم الشيوخ والنساء والأطفال والأقوياء والضعفاء والمرضى والأصحاء . ولكننا سنعتبر هذا الكلام تركيزا دعائيا ، يريد صاحبه احياء جانب من جوانب الحياة الاسلامية وهو الجهاد ، الذى يتعرض الآن للاهمال . فهذا المقال لن يجرح الفكر الاسلامى لأنه لا يستحدث فيه عنصرا جديدا ، رغم مافيه من خطأ فى المنطق ومن سوء فى التعبير وفى الصياغة . ولكن الداعى لو بدأ ، على العكس من هذا ، يلقى خطابا على النحو التالى :

« ان الروح الحقيقية للاسلام هى العسكرية .
ولم تنزل الكتب السماوية والأديان الا لتربية الروح

العسكرية فى المؤمنين . ان الهدف النهائى لجميع انشطة الاسلام هو تدريب المؤمنين عسكريا . وأن الأذان انما هو البوق العسكرى ، وهروع المسلمين الى المساجد عقب الأذان انما هو كتجمع الجند فى الميدان عند سماع البوق ، والحج هو مسيرة جنود الاسلام فى العالم امام الله . ان الأمة الاسلامية لهى جيش الهى ، والاسلام انما هو النظام العسكرى الذى انزل على هذا الجيش لتنفيذه بالقوة ، كما جاء فى القرآن الكريم : كنتم خير أمة أخرجت للناس تأمرون بالمعروف وتنهون عن المنكر ! » (١) .

انه لو شرع أحد الناس فى القاء خطاب من هذا النوع فسوف نقول عنه : انه يقوم بتفسير عسكرى للدين .

ان الفقرة الأولى ـ عن اهمية دور الجندية فى الحياة الاسلامية ـ تدل على عنصر التركيز الدعائى على قضية تتعرض للاهمال .. أما الخطاب الآنف الذكر ، فهو يتعدى حدود « الدعوة » ، فيقيم صرح تفسير جديد للدين . ان الفقرة الأولى كانت تبالغ فى بيان اهمية الجندية ، بينما هذا الخطاب يدرس الدين كله فى ضوء الجندية ، ويحدد لكل جزء من أجزاء الدين أهميته حسب علاقته بالجندية .

فالواضح أن الفرق بين التأكيد الدعائى ، وبين تفسير الدين ، هو ان الداعى فى المثال الأول يحاول ابراز عنصر ما من عناصر الدين ، اما فى المثال الثانى فهو يبالغ فى تأكيد العنصر حتى يجعله اساس هيكل الدين . فقد كان يؤكد على ضرورة الاهتمام بعنصرما ـ كوحدة من وحدات الدين ـ عندما كان يدعو لها ، أما حين جلس على مقعد المفسر فقد أحال ذلك العنصر نفسه الى الوحدة

---

(١) **المترجم** : هذه الخطبة هى على غرار خطب المرحوم د. عناية الله المشرقى الذى كان من اعظم علماء الهند فى الطبيعة والرياضيات ، ولكنه ترك العلم وخاض غمار السياسة وأسس حزب خاكسار « حزب الخدام الالهيين » المؤمن بوجوب اقامة الشعائر الاسلامية بالقوة ، حلته الحكومة الباكستانية عقب قيام باكستان.

الأساسية (فى المجموعة) وهى التى يريد فى ضوئها تعيين قيمة الوحدات الأخرى فى المجموعة . انه لا تهدر أهمية العناصر الاخرى بتركيز الأضواء على عنصر واحد ، فى الشكل الأول ، ولكن الدين كله يفقد معناه (فى الشكل الثانى) بدون ذلك العنصر الذى جعله المفسر جامعا بين كل عناصر المجموعة . ويمكننا أن نشبه ذلك الجزء أو العنصر المؤكد عليه فى الشكل الأول ، بأنه صفحة من الكتاب ، ولكن ذلك العنصر بعينه يصبح العنصر الجامع بين كل أجزاء الكتاب فى الشكل الثانى .

وباختصار ، فان التأكيد الدعائى هو تأكيد وقتى ، على جزء ما من أجزاء الدين ، اقتضته ظروف عملية . وفى الشكل الثانى يذهب الرجل بذلك العنصر او الجزء الى حد احالته الى فلسفة وفكر .

ان التركيز على عنصر ما أمر لابد منه ، لأنه لا يمكن خلق الحركة والنشاط الثورى بين الجماهير بدون استخدام ذلك الأسلوب . ولكن حين تتقمص قضية المعاش الهامة صورة الماركسية ، بسبب ذلك التأكيد ، وحين يخرج حزب الخدام الالهيين من بطن الروح العسكرية .. فان الأمر لا يكون أكثر من تفسير خاطىء لواقع حقيقى . وعلى هذا الأساس نفسه نقرر بطلان ذلك التفسير .

التفسير الخاطىء يقود الى العمل الخاطىء

ان بعض الناس يقولون : ان الاسلام ليس مجرد دين بل هو سياسة ايضا ، وانه لا يكفى احياء الجانب الدينى من الاسلام بل يجب الكفاح لاحياء الجانب السياسى منه فى الوقت نفسه . وهؤلاء حين يرون جماعة من الناس لا يقومون بهذين العملين فى وقت واحد ، يصدرون من فورهم فتاوى يدعون فيها أن هذه الجماعة لا تكافح لأجل الاسلام الكامل .

ولكن هذا خطأ . فالحقيقة أنه ليس بيننا من يفصل السياسة عن الاسلام . ولكن الفرق الذى يميز الأولين من الآخرين هو أن

الأولين يستمدون الكفاح السياسى من العقيدة نفسها . بينما يرى الآخرون (١) أن السياسة تنبع من الظروف والأحوال التى يوجد فيها المسلمون ، فى وقت من الأوقات .

ماذا يكون برنامجنا السياسى فى بلد ما ؟

ان المجموعة الأولى تقول :

ان حكم اقامة النظام السياسى الاسلامى مماثل لحكم اقامة الصلاة . وبكلمة أخرى ، يجب علينا وفى كل الظروف أن نبدأ فى الكفاح السياسى لاقامةالدولة الالهية ، حيث أن هذا هو عين ما يقتضيه الاسلام ، ولأن الارتضاء بشىء أقل من الحكومة الالهية — كما يقولون — لا يعدو أن يكون مساومةورخيصة مع نظام الجاهلية ، وهذه لا تجوز . فكما اننا نؤمن بأنه لا خالق ولا معين الا الله وهو ما نعتقده فى كل الظروف ، فكذلك الكفاح السياسى — أيضا — جزء أساسى من ايماننا ، ولذلك نحن مكلفون فى كل الظروف بالايمان بالله خالقا وبالايمان بوجوب بدء الكفاح السياسى لاعلاء كلمة الاسلام .. وانه يجب ان نقبلهما فى كل الأحوال ، وأن نضعهما نصب أعيننا على قدم المساواة .

ولكن المجموعة الثانية ، على العكس من هذا ، تؤمن بأن البرنامج السياسى للمسلمين ، ليس قضية العقيدة فى حقيقته ، بل هو رهن الظروف والأحوال . صحيح ان الاسلام حين أصدر أحكامه حول الأشياء الأخرى تناول السياسة والنظام أيضا . ولكن لا يكفى لتعيين أسلوب العمل السياسى الاسلامى أن نشير الى تلك الأحكام ، بل يجب دراسة الظروف والأحوال المحيطة بجماعة المسلمين فى زمن ما ، وفى مجتمع ما . فالظروف وحدها سوف تقرر كيف نقوم بواجبنا فى وقت معين لتنفيذ الأحكام السياسية الاسلامية .

ان مسألة التفسير هذه ليست قضية نظرية وفكرية

(١) والمؤلف مع هذا الراى الاخير ، كما سيأتى — المترجم .

فحسب . بل هى قضية عملية غاية فى الخطورة . فالعمل نتاج التفكير الانسانى ، والانسان يعمل ويركز جهوده بنفس الأسلوب الذى يفكر به . فاذا كان احد الناس مولعا بالتفسير الاقتصادى للحياة ، فانه سوف يركز جميع طاقاته العملية لتغيير النظام الاقتصادى الفاسد . أما اذا كان أحدهم يعتبر فساد الحياة وصلاحها قضية روحية فانه سوف يركز كل نشاطه على تربية روحه وتزكيتها .

ان دراسة معظم الحركات السياسية فى العالم الاسلامى تدلنا على أن فشل تلك الحركات فى التحليل النهائى يكمن فى خطأ مناهج فكرها المعوج . لقد نظرت هذه الحركات الى الدين على انه نظام سياسى . وكان من جراء هذه العقلية السياسية أن هذه الحركات ركزت كل جهودها على تغيير النظم السياسية فى بلدانها . واستعصى على رجال هذه الحركات ـ بسبب عقلياتهم السياسية الخاصة ـ أن يتنبهوا الى أن هناك أعمالا عاجلة يجب عليهم العناية بها والانصراف اليها قبل السعى الى تغيير النظام . وهؤلاء لم يشعروا بالطمأنينة القلبية الا حين وجدوا أنفسهم مشغولين على جبهة الثورة السياسية ، ذلك أن منهجهم الفكرى لم يكن يسمح بشىء أقل من ذلك .

وكانت نتيجة هذه المغالاة ، فى اعطاء العنصر السياسى الاهمية القصوى ، ان نسى هؤلاء الرجال أن السياسة ليست لعبة من طرف واحد ، بل هى لعبة مزدوجة ، ويجب اخضاع أقوى الأطراف فى المجتمع للفوز فى هذه اللعبة . ولهذا يجب الا تنزل جماعة ما الى الساحة الا حين تثق فى أنها أصبحت قادرة على معاملة الأطراف القوية .

اما النزول الى ساحة السياسة قبل هذه المرحلة فهو مرادف للانتحار ، لا غير . ان السياسة نهر لا يمكنك عبوره بقفزتين أو ثلاث قفزات ، والذى يقفز فى النهر بدون تدريب كاف فى السباحة انما يسلم نفسه الى قاع النهر . وهذا ما حدث مع تلك الأحزاب والحركات السياسية العزيزة علينا . لقد رأى رجالها أن الاكتفاء

بشىء دون السياسة بمثابة خيانة لرسالتهم ، ولذلك قفزوا الى نهر السياسة بدون تدريب كاف وبدون مراس ضرورى .. فحقت عليهم سنة الطبيعة ، وأصبحوا ضحايا زوابع السياسة .

لماذا هذه الدراسة ؟

هناك أسلوبان لدراسة الدين .

الأسلوب الأول هو البحث عن التعاليم والأحكام الاسلامية وعن فضائلها .

والأسلوب الثانى هو التفكير فى أسرار التعاليم الاسلامية وحكمتها .

ان الوعظ والفقه يمثلان الأسلوب الأول . اما الأسلوب الثانى فى دراسة الدين فلم يعد فنا متكاملا بعد الا أن مفكرى الاسلام منذ أقدم العصور ، قد فكروا فى أسرار الأحكام الاسلامية وحاولوا اكتشاف حكمتها ، وأضافوا جديدا ، فى كل الأجيال . ومن أهم الذين تنبهوا الى هذا المنهج : عز الدين بن عبد السلام ، وابن تيمية ، وابن قيم الجوزية ، والامام الغزالى ، والشاه ولى الله الدهلوى صاحب (حجة الله البالغة) .

ان دراسة أسرار الشريعة ، هى الأخرى ، تنقسم الى نوعين : النوع الأول هو دراسة أسرار مختلف الأحكام الاسلامية ، كل على حدة ، والنوع الثانى من هذه الدراسة هو أن نحاول اكتشاف الحكمة الجامعة فى الدين ، ككل جامع .

ان النوع الأول من الدراسة يستهدف البحث عن أسرار الشريعة فى مختلف أجزاء الدين واحدا واحدا ، بينما النوع الثانى يصبو الى البحث عن تفسير عام جامع للدين حتى يتبوأكل جزء من الدين مكانه فى المجموعة .

ان جهود اسلافنا الباحثين عن حكمة الدين تتعلق اساسا

بالنوع الأول من الدراسة ، اى بالبحث عن اسرار الشريعة فى مختلف الأحكام ، كل على حدة ، فهم يتناولون شعائر الاسلام واحدة واحدة ، ويبينون حكمتها وسر تشريعها .

أما فيما يتعلق بالنوع الثانى ـ اى البحث عن اسرار الشريعة ككل جامع فان المؤلف يجهل اى جهد مستقل فى الموضوع .

ومن هنا ، كان هذا الجهد جد خطير ودقيق ، حيث لا توجد امامنا اية محاولة نموذجية رائدة لهدايتنا نحو أسلوب اجراء هذه الدراسة ، بالرغم من وجود مواد متناثرة فى الأدب الاسلامى حول الموضوع .

ان المؤلف يرى ان الوجود الانسانى نفسه ـ الذى نزل من اجله الدين ـ لهو اكبر مثال نموذجى لفهم الرباط الجامع بين مختلف عناصر الدين . ان الانسان فى حقيقته النهائية لا شىء سوى وجود روحانى أو نفسى ، فالانسان لا شىء سوى ذلك فى التحليل النهائى لوجوده . ولكن الروح لا تظهر فى عالم الوجود المادى مطلقة ، بل هى تلبس ثوب جسد كامل حتى تظهر فى عالم المادة . فحقيقة الانسان هى « الروح » ، و « الجسد » هو مظهر الروح الخارجى .

ولكن الحدود الاضافية للانسان لا تنتهى هنا . ان هناك شيئا آخر يعتبر أساسا للوجود الانسانى ، وهو ما نسميه بالقوة والصحة .

فكما أن الانسان ـ وبلغة علم النفس : « الأنا » ـ لا يمكن ان يظهر فى الوجود المادى بدون جسد ، فكذلك لا يستطيع انسان ما ـ أو « الأنا » ـ أن يحتفظ بجسده ووجوده ما لم يحتفظ بالصحة والقوة . ان الجسد المريض او العاجز لايستطيع أن يسخر الامكانات التى قدرت للانسان فى هذا العالم .

ودين الله أيضا جامع لعنصرين من هذا النوع ، فاذا كان الوجود الانسانى ـ الذى انزل لأجله الدين ـ يجمع بين عنصرين فالدين أيضا يتكون من « روح » و « جسد » ، ولكن الجسد الذى لابد منه للوجود الانسانى ، ليس بديلا للاصل المطلوب . فالمطلوب الحقيقى هو الروح ، والجسد لم يدخل الى المجموعة الثنائية الا كجزء اضافى وليس كجزء أصيل .

* * *

الفصل الثانى

الاسلام ومقتضياته

كثيرا ما يهلك المرء زعمه بأنه على علم بكل الحقيقة . لقد كان ارسطو يزعم ان عدد أسنان المرأة أقل عددا من أسنان الرجل . وهو لم يقع فى هذا الخطأ الا لأنه كان يعتقد أنه يعرف الحقيقة ! اذ انه لو كان قد طلب يوما من زوجته أن تفتح فاها وعد أسنانها لعرف ان لا علاقة لمزعومته بالحقيقة البتة ! ! ولكن أرسطو لم يشعر بضرورة هذه المشاهدة ، فقد كان جازما بأنه على علم بالحقيقة .

عليك الا تبتلى نفسك بخطيئة الاعتقاد بأن ايمانك بصحة شىء ما دليل فى حد ذاته على صحة ما تعتقده . ان الانسان أحيانا يغلق نفسه داخل دائرة فكرية ، فيظن ان ما يراه هو كل ما فى الكون من الحقائق . الا انه اذا تجاسر يوما ، فخرج عن دائرته الانعزالية ، لتأكد أن الحقيقة أوسع بكثير مما كان يظنه وهو حبيس دائرته الخيالية .

ان هذا العالم عالم اختبار . وعلاقتنا به معقدة الى أقصى درجات التعقيد ، حتى لقد أصبح من أصعب الأمور ان نقيم رأيا يكون اقرب الآراء الى الحقيقة .

ان الشىء الذى يطلق عليه الانسان انه « فكرة » قد نسجته عوامل لا حد لها ، ولا سبيل الى رؤيتها للآخرين ، وأحيانا للانسان صاحب الفكر نفسه . فهناك جوانب كثيرة : كيف نظرت الى واقع ما ؟ فى أى وقت نظرت اليه ؟ من أية زاوية القيت نظرتك ؟ وبأى العواطف ؟ وماذا كانت معلوماتك المسبقة عن الموضوع الذى نظرت اليه ؟ ان هناك جوانب كثيرة تؤثر على حكمك على شىء ما وعلى رأيك حوله . كثيرا ما يخيل الى المرء انه قد وصل الى الحقيقة ، ثم يكتشف انه كان لا يزال فى متاهات الضلال !

لقد حدث قبل أكثر من نصف قرن ان مواطنا روسيا اشترى شيئا من أحد المحلات التجارية . وحين وصل الى بيته لفتت نظره الورقة التى كانت بضاعته ملفوفة بها ، فاذا بها ورقة من الجريدة

السرية التى كان يصدرها لينين . لقد أثرت أفكار الجريدة فى المواطن ، فبدأ يبحث عن الكتب الاشتراكية ، حتى انخرط فى الجيش الثورى الذى قاد الانقلاب الشيوعى .

وهناك كثيرون — مثل هذا المواطن الروسى — من الذين يقرأون لكتاب ومفكرين فيتأثرون بهم ويقبلون على أفكارهم معتقدين أنهم قد توصلوا الى الحقيقة النهائية . هذا ، رغم اننا نعرف أن هذا المفكر (١) واتباعه كانوا كلهم فى ضلال ، وكانت سكينتهم القلبية محض خديعة انخدعوا بها وخدعوا الآخرين أيضا ..

وهذه هى حال الاسلام . فانشراح صدرنا لتفسير من تفسيرات الاسلام لا يكفى فى حد ذاته سببا لنجزم بأننا قد وصلنا الى التفسير الصحيح للاسلام فى حقيقة الأمر . واذا كانت الأفكار اللادينية والمعتقدات السطحية يمكنها ان تؤثر فى الناس ، فما بال الأفكار التى تعرض بالمصطلحات الدينية مدعمة بالآيات والأحاديث النبوية الشريفة ! والحقيقة ان لدينا فى هذا العالم كل نوعيات البشر . ومهما كانت الأفكار او النظرية التى تدعو لها فانك ستجد دائما بعض من يؤيدونك .

ان عقولنا ليست واضحة بالرغم من أن دين الله واضح تمام الوضوح . فيمكن تقديم مئات من التفسيرات لدين الله ، وكل تفسير منها يكفى لضلال مئات الألوف من البشر . ان كثيرين سيفترقون وآخرون سيجتمعون على أساس كل تفسير من هذه التفسيرات .

انك تعتقد عن رجل ما انه على ضلال بين ! الا أنك لو تحدثت اليه لاكتشفت أنه لم يقم فكره بدون أساس .. بل لديه دلائل

(١) يقصد : لينين — المترجم .

« قطعية » حول ما يدين به . انه يجزم بكل ثقة ان فكره هوأكثر الأفكار تطابقا مع « الحقيقة » .

لقد فكرت كثيرا فى هذه المعضلة .. فكيف يحدث هذا التنافر الشديد بين « حقيقة » واخرى ؟ ان الحقيقة لا يمكن أن تكون سوى حقيقة واحدة . فلم اذن يفسرونها الف تفسير وتفسير ؟

وردى على هذا : ان الحقيقة واحدة ، بدون شك ! الا ان الزوايا التى ينظرون منها الى الحقيقة تختلف من شخص لآخر . ان هذا الاختلاف فى زوايا المشاهدة هو الذى يوجد التصورات المختلفة عن الحقيقة الواحدة . ان جميع صور الضلال فى حقيقتها النهائية اخطاء فى تفسير الحقيقة . فليس الضلال ان يخترع أحد قصة لا أصل لها ، بل الضلال دائما تفسير خاطىء لواقع موجود. ونتيجة هذا التفسير الخاطىء ، وكمقتضى له ، تخرج الأخطاء من بطنه واحدة بعد الأخرى .

وعلى سبيل المثال ، فان من الوقائع المعروفة ان التكوين الجسمانى لكثير من الحيوانات يشبه تكوين حيوانات أخرى كثيرة . فالشبه كبير جدا بين تكوين كل من الانسان والضفدعة لدرجة أن طلبة الطب يبداون تجاربهم الجراحية على الضفادع اولا . ان هذا الشبه دليل للمؤمن على أن خالق الكون واحد ، وانه قد خلق جميع الحيوانات بحكمة بالغة ، فلولا خلقه أجسام الحيوانات على نمط مشابه ، لما تمكنت هذه الحيوانات من مواصلة الحياة والتعايش فى بيئة واحدة خاصة — هى بيئة الأرض — ولما تمكنت من اداء واجباتها ضمن تلك البيئة . فكما ان السمك يحتاج الى أعضاء وجوارح من نوع خاص للسباحة فى الماء ، فكذلك الطير يحتاج الى نوع خاص من الأعضاء المشابهة لأعضاء السمك للسباحة فى الهواء . والتكوين الجسمانى لكل من السمك والطير مشابه لهذا السبب . ولكن علماء الارتقاء قد نظروا الى هذا الواقع من زاوية أخرى ، فزعموا فيه حقيقة مغايرة . لقد قام هذا التشابه دليلا لديهم على ان مختلف الحيوانات

(وكذلك الانسان) لم توجد على حدة ، بل كلها من نسل واحد واولاد جد واحد أعلى . وشرحوا ذلك قائلين : ان هذه الصور الحيوانية ظهرت للوجود واحدة بعد أخرى بسبب خضوع جرثومة حياتية أولية لعلل مادية معينة . فالشبه بين السمك والطير يرجع لديهم الى أن السمك فى محاولته للطيران فى الفضاء تحول الى الطير !! وبعبارة أخرى ، فان الشيء الذى كان يذكرنا بابداع الخالق قد تحول فى هذه الرؤية الى شيء ينفى أى وجود للخالق ! ولم يحدث هذا الا لأنهم بدأوا يبحثون فى شيء ، يدل على حكمة الخالق ، عن خالق الكون نفسه . لقد نظروا الى الحقيقة من زاوية خاصة لم تكن هى الزاوية الصحيحة . انه من الممكن ان ترى شيئا أشبه بصخرة ، بينما هو فى مشاهدته الصحيحة : فيل !! فالخطأ كامن فى النظر من زاوية خاطئة .

* * *

وهذا ما يمكن أن يحدث فيما يتعلق بتفسير الاسلام لو اخطأنا فى النظر الى نصوصه بالأسلوب الصحيح . تذكر ان كون فكر ما جميلا فى عينيك أمر ، وكونه صحيحا فى ضوء كتاب الله أمر آخر . فالشيئان غير مرتبطين بالضرورة ..

انك ستقول : فما المقياس الذى نطمئن باستخدامه على تفسير ما ، الى انه التفسير الصحيح . ان القرآن الكريم يشرح ذلك بوضوح ، فيقول :

« أفلا يتدبرون القرآن ، ولو كان من عند غير الله ، لوجدوا فيه اختلافا كثيرا (١) » .

اننا نجد فى هذه الآية المقياس الواضح الذى يبين انه لا شيء فى القرآن يتعارض مع شيء آخر فيه فاذا وجدنا أن تفسيرا ما للقرآن يتعارض مع جزء آخر فيه فذلك دليل فى حد ذاته على أن ذلك التفسير (المتعارض مع جزء من القرآن) ليس من عند الله بل هو

(١) النساء: ٨٢ .

من عند غير الله بكل تأكيد . فالمقياس القرآنى القطعى لاختبار أى تفسير – من الناحية النظرية الأيديولوجية – هو أن يكون مطابقا للدين كله كمجموعة . اما اثبات نظرية ما باستخدام الكلمات والألاعيب اللفظية فأمر فى غاية السهولة . والنظرية لاتوافق المجموعة توافقا كاملا الا اذا كانت أصح تفسير للمجموعة الدينية كلها . أن خاصة كل تفسير خاطىء أنه لا يهتم الا بنوع معين من الآيات ، اما الأجزاء الأخرى من كتاب الله فتظل جزءا من ايمان رجال هذا التفسير ، ولكنها لا تكون أبدا جزءا من عقولهم وبرامجهم . ان افكارهم لا تتغذى من تلك الأجزاء التى اهملوها من كتاب الله . فاذا وجدت أن تفسيرا ما للدين لا يوافق القرآن كله ، مثلما يوافق أفكار صاحب التفسير الذاتية ، فتأكد انه ليس تفسيراً للقرآن ، بل هو تفسير لأفكاره الذاتية . فان كان منبع دينك وتفسيرك هو القرآن فالقرآن وحده هو الذى سوف يهيمن على كل تفسيرك . أما اذا كان تفسيرك مقتبسا من مصدر آخر ، فان ذلك المصدر هو الذى سوف يعبر عن دينك أوضح تعبير .

ولكن هذا المقياس وحده لا يكفى لتشخيص اخطاء تفسيرما. فقد يحدث ان يخدع العقل صاحبه . فالمرء يخدع نفسه كثيرا بتأويلات كاذبة ويطمئنها بأن تصوره (الخاطىء) عن الحقيقة انما هو التصور الصحيح ، رغم عدم انسجامه مع المجموعة الكاملة . فاذا أضفنا بعض المقاييس (أو الشروط) العملية الى هذا المقياس النظرى السالف الذكر ، لزال امكان الخطأ ولأمكننا ان نحكم – بكل انشراح صدر – اننا قد ظفرنا بحقيقة الدين او اننا لم نزل محرومين منه .

كيف تعرف انك قد ظفرت بالدين ، ام انك لا تزال محروما منه ؟ ان الشروط العملية التى يضعها الاسلام هى خير مقياس لتحديد ما اذا كنت مسلما أو من غير المسلمين .

ان للاسلام شأنه شأن كثير من النظريات ، آثاراً تظهر على المؤمن به . فهناك نتائج لابد من ظهورها على المرء بعد تصديقه لكتاب الله . وتلك النتائج أو العلامات مبينة واضحة فى القرآن اما اذا لم تظهر على المرء تلك النتائج أو العلامات الخاصة بالمؤمن

فذلك دليل واضح على ان ايمان المرء ليس هو الايمان الذى بعث الله رسوله لنشره ، بل هو ايمان آخر من اختراع ذلك المرء .

ليس هناك فهرس كامل لهذه العلامات والنتائج التى لابد من ظهورها فى حياة المؤمن . ويمكن بيانها بأساليب مختلفة . وسأحاول فيما يلى بيان بعض أهم هذه الصفات المطلوبة من المؤمن بكتاب الله :

أولا – يجب أن يلبسك ايمانك لباس التقوى

ولكى تفهم هذا يجب أن تدرس سورة الاعراف بامعان . ان هذه السورة تقول لنا أن آدم وحواء فقدا لباسيهما عندما أكلا من الشجرة الممنوعة فى الجنة . فتابا الى ربهما ، فغفر لهما ربهما وكساهما لباسيهما من جديد .

ان ما حدث مع جدنا الأعلى كان فى حقيقته تمثيلا خارجيا لحقيقة باطنية . ان اللباس الذى يذكره القرآن بأن آدم وحواء تعريا منه لم يكن لباسا من صوف أو قطن ، بل هو اللباس الذى البسه الله كل عباده المؤمنين ، وهو اللباس الذى يحاول الشيطان تعرية المؤمنين منه . ولذلك يخاطب الله تعالى المؤمنين بعد ذكر واقعة آدم وحواء :

« يا بنى آدم قد أنزلنا عليكم لباسا يوارى سوءاتكم وريشا ، ولباس التقوى ذلك خير ، ذلك من آيات الله لعلهم يذكرون .. يا بنى آدم لا يفتننكم الشيطان كما أخرج أبويكم من الجنة ينزع عنهما لباسهما ليريهما سوءاتهما . أنه يراكم هو وقبيله من حيث لا ترونهم . انا جعلنا الشياطين أولياء للذين لا يؤمنون » .

الأعراف : ٢٦ – ٢٧

فالله الذى متعنا بلباس لستر جسدنا الظاهرى وللوقاية من الشتاء والصيف ، قد متعنا فى الوقت نفسه بلباس آخر أهم وافضل من اللباس الظاهرى . وهذا اللباس نصر من الله ، وهو

يظهر فى حياتنا فى صورة التقوى ويقينا من هجمات الشيطان . وهو انعام الله على عبده الذى يتقدم اليه تعالى بالايمان . « (وآتاهم تقواهم) ـ محمد : ١٧ » . ان الشيطان ليكره هذا اللباس كرها شديدا ، ويبذل قصارى جهده لخلعه من جسد العبد الذى يجده متزينا به . ان الذين يتمتعون بنعمة الايمان يشعرون بأنه يكسوهم هذا اللباس الالهى . واذا حدث فى طرق الحياة الوعرة ان يغويه الشيطان ويبعده عن طريقه المستقيم ، فاذا بالعبد يشعر بأنه قد « تعرى » من لباسه وعندئذ يهرع العبد الى ربه تائبا مستغفرا ، كما هرع آدم وحواء الى أوراق التين لستر جسديهما . ولكن الغافلين عن الله لا يعرفون أن هناك لباسا للتقوى ، ولا يشعرون بأنهم كانوا يتمتعون بلباس ، وانهم قد حرموا منه نتيجة أعمالهم السيئة . انهم عرايا أشبه بالحيوانات والبهائم ، ويموتون مثلها ، ولكنهم لا يشعرون .

وهذه هى الحقيقة التى بينها الله تعالى فى نهاية السورة بهذه الكلمات :

« ان الذين اتقوا اذا مسهم طائف من الشيطان تذكروا فاذا هم مبصرون ، واخوانهم يمدونهم فى الغى ثم لا يقصرون » .

الأعراف : ٢٠١ ـ ٢٠٢

* * *

ثانيا : ان الشهادة الأخرى على تمتعك بنعمة الايمان أن يصلك « رزق الله »

ان كل ماتقوم به تنفيذا لأوامر الله انما تقوم به بارادتك .. فان شئت فعلت ، وان شئت أبيت . ولكن هناك كيفيات من نوعية خاصة يمر بها المؤمن دون أن يملك ازاءها الخيار . انك لا تستطيع أن تخلق تلك الكيفيات الربانية . فمن أين تلك الكيفيات ؟ أنها من عند الله ، انها رزق المؤمن من عند ربه . ولا يمكن أن تحيا الشخصية الايمانية بدون هذا الرزق .

(وهذا هو الرزق الذى وجده نبى العصر لدى مريم عليها السلام ، فسألها : « يا مريم أنى لك هذا ؟ » ، فردت عليه قائلة : « هو من عند الله » آل عمران : ٣٧) .

ان جهودك هى أعمالك . وهذه الكيفيات السامية هى الجائزة التى يضفيها الله على العبد الذى يحسن عبوديته . ان الله تعالى لم يجعل انعامه مؤجلا ، بل جعله معجلا . ان العبد ليفوز بهذا الانعام فى اللحظة نفسها التى يستحقه فيها . اننا نمر بهذه الكيفية الملكوتية الربانية فى نفس اللحظة التى يحظى أى عمل لنا فيها بالقبول والرضا لدى ربنا . ان هذه الكيفيات مقدمة للنعيم الذى وعد الله به عباده الصالحين . انها قبس من عطر الجنة ، يجده المؤمن فى قلبه . ان القرآن الكريم يخبرنا بأن الجنة التى سيظفر بها أهل الايمان هى : « رزق معلوم » لهم (الصافات : ٤١) . ان تلك الجنة لن تكون شيئا مجهولا للعباد ، لأنهم قد عرفوها فى هذه الدنيا :

« ويدخلهم الجنة عرفها لهم » .

محمد : ٦

وقد روى فى الحديث الشريف :

« لأحدكم اهدى بمنزله فى الجنة منه بمنزله كان فى الدنيا (١) » .

وفى أثر آخر :

« ان حسناته تكون دليلا الى منزله فيها » .

عندما يتصدق الانسان ، وقد أصبح من « الذين يؤتون ما آتوا وقلوبهم وجلة » ، وعندما ينعم بتلاوة قرآنية وقد صدق عليه « ترى أعينهم تفيض من الدمع » ، وعندما يقضى ليلته وقد

(١) البخارى ، كتاب الرقاق ، باب « القصاص يوم القيامة » : ٨/١٣٨ ـ ١٣٩ .

أصبح ممن « تتجافى جنوبهم عن المضاجع » ، وعندما تمر به لمحات يدرك فيها حقيقة أن « الذين آمنوا أشد حبا لله » ، وعندما يشعر بألطف كيفيات الايمان ، وعندما تنكشف له فجاة حقيقة من الحقائق المكنونة ، وعندما تتمتم شفتاه ، وهو يناجى ربه فى كيفية الهامية ، بكلمات لم تخطر له على بال .. فذلكم هو « رزق الله » الذى بدأ ينزل على العبد الصالح . انه يستمتع بهذا الرزق الربانى بثمرة من الثمار التى حفظها ربه له ، والتى سيظفر بها يوم الانعام ، يوم الدين . ان أهل الايمان سيشعرون حينذاك انها تلك الثمرات التى قد استمتعوا بمذاقها فى الأرض :

« كلما رزقوا منها من ثمرة رزقا قالوا : هذا الذى رزقنا من قبل وأتوا به متشابها » . البقرة : ٢٥

تذكر أن انعام الآخرة ، انما هو عطاء متشابه ومعلوم ومعروف لدى المؤمن . فما أظلم وأجهل من يعتقد انه سوف يظفر فى الآخرة بالثمرات التى لم يتذوقها فى حياته الدنيا .

انك ان لم تكن قد مررت بلمحات وجدت فيها نفسك أقرب الأشياء الى الله ، فكيف لك أن ترجو ذلك يوم الآخرة ؟ لا شك ان الصلاة لها الأجر الكبير الذى به تقر عيون المصلين ، ولكن كيف يستمتع المرء فى العالم الآخر بتلك النعمة ، ان لم يكن قد تمتع فى عالمه هذا بالكيفية التى قال عنها النبى الكريم :

« جعلت قرة عينى فى الصلاة » (١)

* * *

ثالثا : ان العلامة الثالثة الدالة على انك تتمتع بنعمة الايمان هى الا تصاب حياتك بالجمود والتعطل والانحطاط .

---

(١) النسائى ، كتاب عشرة النساء ، باب « حب النساء » : ٦١/٧ . ومسند الامام أحمد عن أنس بن مالك : ١٢٨/٣ ، ١٩٩ ، ٢٨٥ .

ان المرء الذى يختار الايمان والعمل الصالح يظفر من عند الله ب « حياة طيبة » (النحل : ٩٧) . وقد فسر الضحاك « الحياة الطيبة » بهذه الكلمات :

« هى العمل بالطاعة والانشراح بها » .

(**ابن** كثير) (١)

فما أبعد أن يصاب المرء بالجمود والانحطاط اذا كان متمتعا « الحياة الطيبة » (من عند الله) ؟ فان رأيت مؤمنا مصابا بالجمود والانحطاط ، فذلك دليل واضح على أن ايمانه مرفوض من الله .

واليك هذا المثال . انك تشاهد لمبة الكهرباء . ان اللمبة اذا لم تكن ثابتة فى موضعها ، فهى اما أن تعطى اضاءة أقل أو الا تضىء مطلقا او ان تنطفىء بعد أن يحمر سلكها ، الا أن اللمبة اذا كانت مركبة جيدا ، فانها تعطى الاضاءة الكاملة ، وتستمر فى الاضاءة مادام التيار الكهربائى متوفرا . وهذه هى حال المعرفة الايمانية . فان كنت تتمتع بالمعرفة الناقصة ، فغير مستبعد أن تظهر بعض القبسات من نور الايمان فى حياتك ، الا انها ستظل ناقصة ومؤقتة . ولكن لو وفقت الى المعرفة الكاملة فان حياتك كلها ستضىء وستظل مضيئة حتى آخر لحظة من حياتك ، فان نور هذه المعرفة لا يخمد . ان المعرفة الايمانية الحقة هى أن تصل علاقتك بمولد قوى لا تتعطل ماكينته أبدا . فان كان أحد المؤمنين يتمتع بهذه العلاقة فكيف يمكن أن ينطفىء النور الايمانى من حياته ؟ ! أو أن يظهر بصورة عارضة منقوصة ؟ !

وليس هذا كل ما فى الأمر ، بل يجب أن تسير قدما يوما بعد يوم ، على درب الايمان والهداية . فان كان الايمان قد ربطك بالاله العظيم الشأن الذى « كل يوم هو فى شأن » ، (الرحمن: ٢٩) ... فكيف يمكن أن تجد الها — هذه صفاته — ثم تظل حياتك

---

(١) تفسير ابن كثير ، دار الشعب : ٤ / ٥٢١ .

راكدة عند مقامها لا تتقدم ؟ ان المعطى اذا كان يغمر عبده بالعطاء فى كل آن ، فيجب أن يكون للعبد نصيبه من هذا العطاء ، وأن يظهر أثر هذا العطاء فى حياته وأن يشعر به . فان لم يشعر العبد بهذا فمما لا شك فيه أنه قد تعطل فى مكان ما ، ولم يتمكن من ايجاد علاقة دائمة مع ذلك المنبع الفياض الذى يزيد المهتدين هدى :

« والذين اهتدوا زادهم هدى »

محمد : ١٧

* * *

وفى النهاية أريد ازالة بعض المغالطات التى يمكن أن تثار .

ان من العوامل التى شدت الناس الى بعض التفسيرات الدينية : انهم رأوا أن هذا التفسير أو ذاك يفيد الدين . لقد ظنوا أن الجهد الذى يستفيد منه الدين لابد أن يكون مبنيا على فكر صحيح بالضرورة . (على سبيل المثال : هذه نظرة بعض الناس الى الحركة القاديانية الضالة ، والتى لها نشاط دعائى كبير فى الدول غير الاسلامية حيث تجذب الناس الى دعوتها باستغلال اسم الاسلام) .

ولكن الحقيقة انه ليست هناك علاقة اللزوم بين الاثنين : صحة التفسير ، وظهور الفوائد منها . انه من الممكن أن يكون جهد الناس نافعا للدين بينما هم انفسهم ليسوا على الصراط المستقيم . فلو أنشأ بعض الراسماليين مكتبة تجارية وطبعوا نسخ القرآن الكريم فى اعداد كبيرة وباعوها فى العالم كله ، فلا شك أن الدين سيستفيد من هذا العمل . اما المشكوك فيه فهو مصير أولئك الراسماليين القائمين بهذا العمل ، وهل سيكون لهم أجر عند الله ؟ وذلك أن أعمال الكفاح الدينى نوعان :

أولا ـ شهادة الدين .

ثانيا ـ الدفاع عن الدين وحفظه .

ان شهادة الدين حركة خالصة لنشر الدين ، وتقوم بعملها على المنهج الصحيح المستقيم من الناحية النظرية أو العملية . وهذه هى المطلوبة منا . والذين سيبعثون كخدام هذا الدين ـ يوم القيامة ـ هم الذين كافحوا لأجل شهادة الدين .

اما حركة الدفاع عن الدين وحفظه ، فهى صون الدين مباشرة او بصورة غير مباشرة . ومن أمثالها الدفاع ضد هجمات الأعداء ، والكفاح لأجل جزء من أجزاء الدين المتعرض للخطر أو الانقراض . انه ليس من الواجب أن يتمتع المرء ـ القائم بهذه الحركة الدفاعية ـ بالفكر الصحيح أو العمل الدينى الصحيح . لقد جاء فى الحديث :

« ان الله ليؤيد هذا الدين بالرجل الفاجر » (١)

والأمر الآخر الذى يجب ملاحظته هو انه ليس من الواجب ان تظهر نتائج التفسير الخاطىء فى حياة كل من يتبع ذلك التفسير . فقد يحدث أن أحد المتأثرين بنظرية ما خاطئة ، لا يجد فى حياته تأثيرا لتلك الأخطاء التى يشير اليها الناقد . ولكن هذا ليس بدليل على بطلان النقد . فأى تفسير من التفسيرات لا يكون منفصلا عن التاريخ ، بل هو محاولة لعرض حقائق التاريخ بأسلوب جديد . ولذلك ، فان بعض المتأثرين ببعض التفسيرات يحتفظون ـ مع النتائج المنطقية للتفسير الذى تأثروا به ـ بمؤثرات تاريخية اخرى ، استوعبوها فى حياتهم السابقة على قبولهم ذلك التفسير ، من خلال بيئتهم وعلاقتهم الاجتماعية . لقد كان القس الألمانى توت Todt يدعو الى « الاشتراكية المسيحية » ، قائلا : انك لو اردت فهم القضايا الاجتماعية فعليك أن تضع الانجيل على يمينك والكتب الاشتراكية على يسارك ! .

ان هناك كثيرا ممن تأثروا بالفكر الماركسى واستمروا فى تأدية الطقوس الدينية . ولا يعنى ذلك أن الاشتراكية أو الماركسية تقيم

---

(١) البخارى ، كتاب القدر ، باب « العمل بالخواتيم » : ١٥٥/٨ . ومسلم ، كتاب الايمان ، باب « بيان غلظ تحريم قتل الانسان نفسه .. » : ٧٣/١ ـ ٧٤ .

وزنا للدين .. بل لأن الدين كان موجودا فى عقول هؤلاء القوم قبل تأثرهم بالفكر الماركسى . لقد تأثروا شعوريا بالاشـتراكية ، الا أنهم لم يتمكنوا من انتشال لاشعورهم من الخلفيات الدينية التى رسخت فى أعماقهم .

فهذا يحدث مع بعض المؤمنين بحركات قامت ثورة على الدين. فما بال الحركات التى تقوم مدعية احياء الدين ؟ ان امكان حدوث مثل هذه الازدواجية هنا أكثر بكثير من الحالة الأولى . ان كل من ولد فى بيت مسلم ليسلم مبدئيا ببعض الأفكار ، شعوريا أو بغير شعور . انه كان يقوم بتأدية بعض الواجبات الدينية ، وكان يؤمن بمعيار معين من معايير الرفض والقبـول . فالآن اذا تأثر بتفسير جديد للدين فلا يمكن الادعاء بأن حياته الجـديدة نتيجة لتأثره بالتفسـير الجـديد فحسـب . انه من المتيقن ان المؤثرات الجنسية والاجتماعية لها باع فى تنشئته ، فقد رسخت فى نفسه عبر عملية طويلة معقدة . انه لا يستطيع ان يتخلص منها نهائيا مهما ثار عليها . ان حياتك تتكون من مجموعة تصورات شـعورية مكتسبة ومن مؤثرات اجتماعية . ولا يمكن فهم حياتك فهما جيدا الا اذا درستها فى ضوء كلا العاملين : النظرية التى آمنت بهـا ، والخلفية التى نشأت عليها .

الفصل الثالث

حقيقـــة الدين

ان فى الاسلام نوعا من الثنائية ، كما هى موجودة فى الانسان .. فالوجود الانسانى يتألف من اجتماع شيئين ، هما الروح والجسد . والاسلام ، أيضا يتكون من جانبين ، هما الجانب الأخروى ، والجانب الدنيوى .

ولا تعنى الثنائية ان الاسلام علم على مجموعة شيئين ، كلاهما على درجة واحدة من الأهمية . كما ان أصل الانسان هو وجوده الروحانى ، ولكن الانسان لا يظهر الا حين يتمتع بمظهره الجسدى ، فكذلك الأصل فى الاسلام هو حقيقته الداخلية وهى التى يتوقف عليها فوز الآخرة . ولكن الاسلام له مقتضيات فيما يتعلق بالعالم الخارجي الذى يوجد فيه . وهذه المقتضيات الخارجية ذات درجة ثانوية بالنسبة الى أصل الاسلام نفسه . وهذه المقتضيات الثانوية الخارجية هى التى يسميها القرآن الكريم : « **.. وأخرى تحبونها** » . ان الحقيقة الداخلية للاسلام **هى أصله ، أما مقتضياته الخارجية أو الدنيوية فهى جزء اضافى .**

الهدف الحقيقى وراء خلق الانسان :

ان القرآن يدلنا بوضوح على ان الهدف الحقيقى لخلق الانسان هو أن يعبد الله :

« وما خلقت الجن والانس الا ليعبدون »

الذاريات : ٥٦

والمفهوم الحقيقى للعبادة هو الخضوع والتسليم التام لله تعالى . وهذا التسليم له درجتان ، اولاهما ان تبدأ جوارح الانسان وأعماله الخارجية تعيش حياة الطاعة الكاملة لله فى كل المجالات ، وثانيهما أن يسلم قلبه لله ، وينضم فى عالمه الداخلى الى ملكوت الله .

ويمكن فهم هاتين الدرجتين للعبادة من آية كريمة وحديث شريف :

« ان الصلاة تنهى عن الفحشاء والمنكر ، ولذكر الله أكبر »
العنكبوت : ٤٥

ان الآية تقسم نصيب الانسان من الصلاة الى درجتين : الأولى أن يصبح الانسان مطيعا لربه فى حياته وفى كل اعماله الخارجية الدنيوية ، والدرجة العليا من الأولى هى أن يعمر ذكر الله قلب العابد . وفى هذه الدرجة العليا يظل العابد يتمتع بفوائد الدرجة الأولى بكاملها ، ولكنه يحصل على فوائد مضاعفة وهى أن الصلاة تتوغل داخل اعماقه لدرجة أن الصلاة تصبح علاقة نفسية بين العبد ومعبوده ، بعد أن كانت طاعة خارجية .

وجاء فى حديث جبريل .

« .. أعبد الله كأنك تراه ، فان لم تكن تراه فانه يراك » (١) .

ان هذا الحديث يحمل المعانى نفسها ، ولكن بأسلوب آخر ، وهو أن العبد عندما يعتلى المقام الأعلى من العبادة ، فانه يظفر بقرب نفسى من الله ، وتنضم روحه الى الحقيقة الالهية حتى يكاد العبد يظفر بنوع من « الرؤية » فيبدأ فى رؤية الله تعالى ، رغم انه لا يراه بعينه المادية .

والمطلوب من الذين لم يتبوأوا ذلك المقام الرفيع أن يعبدوا الله ويطيعوه حق طاعته ، حيث انه ـ سبحانه ـ يراقب عباده فى كل لحظة . ومن الواضح أن الذى يتيقن من مراقبة الله له لن يخالف أمره فى نشاطاته الدنيوية ، وسوف يقضى كل ثانية من حياته يتوخى رضاه .

ويمكن بيان هاتين الدرجتين من العبادة بأن نقول : ان الدرجة الأولى ـ الدنيا ـ من العبادة هى الظفر بالدين على سطح الوجود الظاهرى الجسدى . والدرجة الثانية ـ العليا ـ هى تشرب العبادة حتى تصل الى العقل والقلب . من الواضح أن تقسيمنا هذا ليس مطلقا ، وانما نستهدف من ورائه أفهام الأمر وتوضيحه .

(١) البخارى ، تفسير سورة لقمان : ١٤٤/٦ . ومسلم ، كتاب الايمان : ٢٨/١ ـ ٢٩ .

ان الفوز بالآخرة موقوف على هذه العبادة . والقرآن أيضا يذكر أن أصحاب الجنة من درجتين : الدرجة العليا هى لمن يسميهم القرآن بأنهم « **السابقون الأولون** » ، والدرجة الدنيا هى لمن سماهم بأنهم « **اصحاب اليمين** » . وقد أوضح القرآن أن المجموعة الأولى من المؤمنين ستظفر بانعام خاص من ربها ، على حين ستظفر المجموعة الثانية بانعام عادى .

مقتضيات الدين :

يمكن فهرسة مقتضيات الدين **دنيويا** فى العناوين الرئيسية التالية :

١ ــ **القيام المعاشى .**

٢ ــ **الحصول على القوة المرهبة .**

٣ ــ **التمكين فى الأرض .**

أولا ــ ان الآية التالية تهدينا الى المقتضى الأول :

« ... **اموالكم التى جعل الله لكم قياما** »

النساء : ٤

ان اهمية المال لدى اهل الدنيا هى انهم يشترون به ترف الحياة .

ولكن اهمية المال عند الله هى ان المؤمنين بدينه يحصلون عن طريق المال على « القيام أو التمكن الاقتصادى » فى الأرض . فهى الأساس الذى يباشرون منه نشاطهم العالمى من اصلاح ودعوة .

ثانيا : والآية التالية تدلنا على المقتضى الثانى ، اى الحصول على القوة المرهبة :

« **واعدوا لهم ما استطعتم من قوة ومن رباط الخيل ،**

ترهبون به عدو الله وعدوكم » . الأنفال : ٦٠

لقد امرنا الله بأن نقوم باعداد القوة ، وحدد لنا ان القوة هى التى تتصف بصفة ارهاب الأعداء ، أعداء الله والمؤمنين . انه من

واجب مسلمى كل العصور والمجتمعات الاسلامية ــ بمقتضى هذا الأمر الالهى الواضح ــ أن يدبروا ويعدوا القوة التى تعتبر القوة المرهبة فى عصرهم .. فالخيول هى التى كانت القوة المرهبة فى العصر القديم ، بيد أن تلك القوة قد تحولت اليوم عن المفهوم القديم . فالمطلوب ، الآن من صريح الآية أن يحصل المؤمنون على القوة التى تكفى لارهاب أعدائنا فى هذا العصر .

ثالثا : وهذه الآية تهدينا الى الجزء الثالث من البرنامج الاسلامى لكل المؤمنين ، اى الكفاح من اجل التمكين فى الأرض :

« **وعد الله الذين آمنوا منكم وعملوا الصالحات ، ليستخلفنهم فى الأرض كما استخلف الذين من قبلهم، وليمكنن لهم دينهم الذى ارتضى لهم وليبدلنهم من بعد خوفهم امنا ، يعبدوننى لا يشركون بى شيئا** »

النور : ٥٥

ان هذه الآية ترشدنا الى ان تمكن الحق فى الدنيا ، والحصول على الأمن والسلام وتوفر البيئة الصالحة للعبادة والانشطة الاسلامية المختلفة : لا يتأتى الا عندما ينتقل حكم الأرض الى أهل الحق . والحصول على الحكم السياسى فى المجتمع يعد من اهم الحاجات الدنيوية لأهل الحق .

ان اى كفاح لتغيير الحكم لا يكلل بالنجاح الا حين تتوفر له كل العوامل والظروف المساعدة . وقضية الظروف هى قضية عالمية . فنحن نحصل على « الظروف السياسية المساعدة » حين تتجمع عوامل كثيرة متباعدة فى مكان وزمان واحد . ان تجمع هذه العوامل والظروف يتم عن طريق قوة كونية ، هى خارجة عن ارادة الانسان . ولهذا السبب نفسه قد نسب الله هذا التغيير الى ذاته تعالى « **ان الله لا يغير ما بقوم حتى يغيروا ما بانفسهم** » الرعد : ١١ . أن الله هو الذى يغير الأحوال وهو الذى يجعلها مناسبة لجماعة ما .

ان الله قد خلق لنا هيكلا مناسبا لظروف الدنيا الموجودة ، وقد وضع الله هيكل الدين ، أيضا ، مناسبا لهذه الدنيا .

ان بعض اجزاء هذا الدين أصله وحقيقته وأساسه ، وبعضها الآخر قد اضيفت اليه لكي يوائم الدين هذه الدنيا التى أرسل اليها الانسان لقضاء فترة اختبار . ولو فهمنا هذه الحقيقة جيدا لما استعصى علينا فهم حقيقة الدين .

وخلاصة القول انه رغم أن كلمات الشهادة (لا اله الا الله) هى وسيلة الدخول الى الاسلام ، الا انها ليست هى كل المطلوب من المسلم ، فالمطلب الحقيقى هو أن يخلق فى نفسه حالة العبودية الكاملة لله تعالى ، وهى التى خلقت العوالم من اجلها . وقد شرح الإمام ابن تيمية حقيقة العبادة بكلمتين : « لفظ العبد يتضمن : كمال الذل وكمال الحب » . ونهاية هـذه العبودية هى المرحلة التى سماها الرسول الكريم بالاحسان . فالعبودية هى أن يسلم المرء نفسه لله ، ويتوجه بكل مشاعره نحوه سبحانه ، حتى يصل الى مقام من اللاشعور ، حيث يشعر بأنه امام الله ، وأنه يرى خالقه وبارئه. والمؤمن يظفر بهذه الكيفية بمختلف الطرق ، كذكر الله وعبادته ، وتحمل التضحيات من أجله وفى سبيله ، وسلوك الطريق الالهى فى معاملات الحياة بالعمد والاصرار ، واشغال القلب واللسان بأمور الله ، والتقرب الى الله عن طريق الأدعية . فهذه هى الأشياء التى تقرب العبد من الله والانسان الذى يطلبه الله هو هذا الانسان . وهذا هو الشىء الذى تتوقف عليه رؤية الله فى يوم الدين ، وبه يدخل العبد الجنة . فبالاحسان فى العبودية يدخل المرء زمرة محبوبى الله .

ان الانسان يجمع عنصرين هامين : الروح والجسد . وبالرغم من أن الروح هى الوجود الحقيقى للانسان ، الا أن وجود الجسد مع الروح يقتضى لوازم شتى ويجب مراعاتها مراعاة تامة طالما بقى الجسد مع الروح .. وكذلك الدين له حيثيتان ، الأولى وهى الحقيقة ، هى تلك التى لها اهميتها فى الآخرة ، وحقيقته الثانوية او الاضافية هى التى اقتضاها وجود الروح داخل الجسد ، وفى عالم الوجود المادى .

والدين لا يقتضى منا فى حقيقة الأمر ، ولأجل الفوز فى يوم الدين ، الا ما هو مطلوب منا بوصفنا روحا ، ولا شىء أكثر من ذلك مطلوب من العبد للفوز بالآخرة .

ولكن ، حيث ان جماعة المؤمنين تعيش داخل عالم يتصارع فيه الباطل مع الحق ، وحيث القوى الملكية وحيث الطواغيت ، فقد وجب على المؤمنين ، حتى يحصلوا على حقهم فى الحياة والتمكن فى الدنيا ، أن يقوموا ببعض الواجبات . وما يفعلونه من هذه الناحية هو ما نسميه بجهادهم لأجل « غلبة الحق » .

ان غلبة الحق أمر حتمى للمؤمن ، مثل الجسد الصحيح بالنسبة للانسان الحى .

* * *

الفصل الرابع

حكمـــة الدين

ان علم « حكمة الدين » أو « أسرار الشريعة » من العلوم التى نشأت لشرح الاسلام وتفسيره . ان هذا العلم يهدف الى البحث عن الحكمة وراء التعاليم الدينية والتنقيب عن المصالح الكامنة فيها .

فتحديد أركان الحج وواجباته ، وتبيين أسلوب تأديته هو الفقه . أما أن تبين فوائد الحج فتقول :

« ان الحج يكون – حول محور عبادة الله – مجتمعا عالميا لأهل الحركة الايمانية » .. فهذا هو علم حكمة الدين .

وكما أن معظم العلوم الاسلامية بدأت مع ظهور الاسلام ، وتطورت فيما بعد ، فكذلك كان البحث عن حكمة الدين من الموضوعات المحببة الى نفوس علماء الأمة ومفكريها منذ ظهور هذا الدين .

ان قدرا كبيرا من المعلومات فى هذا الموضوع متناثر فى مكتبتنا الاسلامية الضخمة . ولكن الكتب التى تناولت هذا الموضوع نفسه قليلة جداً . فانه يمكننا أن نشير الى مئات الكتب حول فن ما من الفنون أو علم ما من العلوم الاسلامية ، الا أن الأمر يختلف فيما يتعلق بموضوع حكمة الدين . ولعل كتاب « حجة الله البالغة » للامام ولى الله الدهلوى ابرز جهد فى هذا الحقل .

بيد أن هذه الجهود تتعلق بجانب واحد من جوانب حكمة الدين . فانك لو القيت النظرة من جانب آخر على هذه الجهود ، لتبين لك أن علم « حكمة الدين » كان اقل حظا واندر اهتماما من جانب علماء الأمة .

ان حكمة الدين قسمان :

أولا – دراسة حكمة كل جزء من أجزاء الدين ، على حدة .. كأن تبحث عن حكمة الصلاة أو الصيام أو الجهاد. ان معظم الأعمال الاسلامية حول « حكمة الدين » تتناول هذا الجانب فقط . لقد

اهتموا بتبيين حكمة الأحكام الاسلامية واحدا واحدا ، وتحت عناوين مختلفة .

ثانيا – دراسة حكمة الدين بوصفه كلا جامعا ، حيث نبحث عن الحكمة الكلية الجامعة التى تربط كل أجزاء الدين ، فنعرض الدين كلا جامعا مرتبطا بعضه ببعض فى اطار شرح يظهر وحدته الجامعة الحكيمة ، ويفسر الحكمة التى جمع الله بها أجزاءه فى كل واحد .

لقد بذل بعض الكتاب فى العصر الحديث محاولات للبحث عن تفسير من هذا النوع حتى انهم توصلوا – فيما يتعلق بأنفسهم – الى تفسير يرون الدين فى ضوئه « كلا جامعا » . وحيث ان التفسير الباحث عن الحكمة له بريقه ورواؤه فى حد ذاته ، كما ان عرض دعوة فكرية ما فى صورة نظرية متكاملة يجذب اليها الأنظار – فقد نجحت بعض هذه المحاولات .

ولم يكن غريبا ان يجد امثال هؤلاء الكتاب اتباعا لهم متحمسين لدعوتهم .

انك تعرف أن كل مجموعة من الأفكار ليست حقيقة بالضرورة .

ان جمع أجزاء متفرقة فى مجموعة فكرية مفهومة دليل فحسب على ان تلك الأفكار كانت أجزاء حقيقة ما لكن الاحتمال يبقى قائما بشدة الا يكون ترتيب المجموعة ، فى حد ذاته ، حقيقيا . فالأجزاء كلها حقيقية ، أما أسلوب جمعها فهو من معجزات العقل الذى قام بذلك الجمع ، لا اكثر .

انه من الممكن أن يتم اكتشاف عظام متحجرة فى منطقة ما اثناء اجراء الحفريات . ومن الممكن أن تتناول عظاما من تلك المجموعة وتقيم هيكلا معينا بربط بعضها ببعض ، ثم تعلن أن ذلك الهيكل يخص حيوانا معينا وجد فى عصر ما من التاريخ .

سيبدو فى ظاهر الأمر ان ادعاءك قائم على دليل . بيد ان الذين درسوا الارتقاء الحياتى يعرفون ان كثيرا من العلماء قد خدعتهم هياكل افتراضية كهذه ، فرفعوا نظرية الارتقاء من مقام الفرض الى مقام الحقيقة .

لقد بحث هذا التفسير عن حكمة جامعة بين مختلف اجزاء كانت غير حقيقية ، بل مزيفة احيانا . انه يحدث كثيرا ان الرجل يربط اجزاء متفرقة فيعطيها صورة مخصوصة بسبب افتراضات نبتت فى مخه ، بالرغم من ان تلك الصورة لا علاقة لها بالواقع ! اى ان الأجزاء قد تتعلق بصورة وهيكل فيربطونها ـ بمحض الافتراضات ـ بصورة اخرى وهيكل آخر ! وعلى سبيل المثال : فان العلماء ظلوا يؤمنون بأن « انسان بلت داؤن » Piltdown Man هو اقدم هيكل لانسان ماقبل التاريخ . ثم توصلوا بعد اجراء التجارب الى ان ذلك الهيكل لم يكن الا تلفيقا مزيفا لبعض العظام التى لم تكن لها علاقة ما بانسان ما قبل التاريخ !!



وكذلك الحال معنا ، فان تفسيرا معينا من هذه التفاسير الخاطئة الرامية الى شرح الدين بوصفه كلا جامعا قد اقام صورة للدين متكاملة ، وقد استخدم هذا التفسير فى تلك الصورة جميع اجزاء الدين . ولكن الفكرة الأساسية التى هى حجر الزاوية فى هذه الصورة لم تكن هى الفكرة الصحيحة .

ويمكننا ان نتصور علاقة تلك الصورة بالدين الحقيقى ، بأن نهدم بيتا ثم نستخدم طوبه واحجاره وخشبه وحديده فى تشييد بيت جديد فى ضوء تخطيط معمارى يختلف عن تخطيط البيت القديم . فبالرغم من ان البيت الجديد سوف يحتوى على ما كان يحتويه البيت القديم من مواد البناء ، الا انه سيمثل صورة معمارية مغايرة للصورة القديمة . وهذا ما وقع فيه صاحب التفسير المشار اليه آنفا . ان هذا الاسلوب لوضع تصور جامع جديد ، باستخدام اجزاء الدين ، لا يطابق روح الدين نفسه

فى شىء ، بالرغم من ان هذا التصور الجامع يحتوى كل اجزاء الدين الحقيقية . ولهذا السبب اصطدم التصور الجديد مع التصور الصحيح للدين .

لقد بحث هذا التفسير عن حكمة جامعة بين مختلف اجزاء الدين ، ثم حاول ربط تعاليم الدين واحكامه فى ضوء تلك الحكمة الجامعة . وهذه الحكمة الجامعة هى فكرة « النظام » .. اى ان الاسلام نظام كامل جامع للحياة ، وان جميع اجزاء الدين ترتبط ببعضها تحت هذه الفكرة .

يقول صاحب هذا التفسير :

« ان الاسلام هو نظام الحياة الذى يربط جميع قضايا الحياة الفردية والاجتماعية وما بعد الطبيعية ، وهو يعالج جميع تلك القضايا بما يطابق العقل والفطرة ».

ليس من الخطأ ان نقول ان الاسلام (نظام للحياة) ، ولكن رفع « النظام » حتى يصبح هو الجامع بين كل اجزاء الدين ، فذلك هو الخطأ بعينه . ان هذا الفكر يدرس الدين فى ضوء الفكرة المسبقة القائلة بأن الدين هو نظام الحياة . ان الفكرة الجامعة لدى انصار هذا الفكر هى ان « النظام » هو أصل المجموعة الدينية .. هذا ، بينما الأصل فى الدين هو كونه عنوان العلاقة بين الرب وعبده . ان الدين ليس محض نظام دستورى ، قانونى وسياسى على غرار سائر الأنظمة الدنيوية ، بل هو مظهر العلاقة النفسية للعبد مع الله . ان الدين عند تنفيذه يشمل عناصر كثيرة يمكن ان يطلق على مجموعتها بانها « نظام الحياة » . ولكن هذا مظهر من مظاهر الدين وحقيقة من حقائقه . انها حيثية اضافية من حيثيات الدين ، وليست هى الحيثية الأساسية .

ان الذين حاولوا دراسة الدين فى ضوء فكرة « النظام » قد وقعوا فى نفس الخطأ الذى قد وقع فيه الذين اقاموا لدراسة الانسان النظرية القائلة : « ان الانسان حيوان اجتماعى » . انه مما لا شك فيه أن للانسان وجودا اجتماعيا فى حياته العامة .

ولكن هذه الحيثية ليست هى الحيثية الأساسية للانسان ، فكونه اجتماعيا مظهر واحد من المظاهر التى يكتمل بها الوجود الانسانى . ان الحيثية الأساسية للانسان انه مخلوق ذو روح وذو ارادة . اما الحيثيات الاخرى — من اجتماعية وغيرها — فكلها خارجة من بطن هذه الحيثية الأساسية .

فالقول بأن « الانسان حيوان اجتماعى » هو بمثابة القول بأن كون الانسان اجتماعيا هو الأساس الذى يمكننا فهم الانسان فى ضوئه . ويترتب على هذا ان جميع حيثيات الانسان سوف تتفرع من هذا الأصل ، وسوف تكون جزءا من اجزاء هذا الأساس . ويقتضى هذا التفسير لظاهرة الانسان أن تكون جميع الحيثيات التى لا بد منها لظهور الانسان تابعة لحيثيته الاجتماعية . فمثلا يقتضى كون الانسان حيوانا اجتماعيا ان يظهر فى صورة الجسد والروح ، وانه لهذا السبب يتمتع بالروح والجسد .. وهو يقتضى ان تكون للانسان سياسة ، فذلك يوجد لديه هيكل فكرى سياسى .. وهذا التصور يقتضى أيضا ان يقوم الحيوان الاجتماعى بتفسير علاقته بالكون ، ولذلك ظهرت فلسفة خاصة به الى الوجود الخ ..

ان هذا التفسير لظاهرة الانسان ، يتناول فى ظاهر الأمر كل حياة الانسان ، ويبدو تفسيرا متكاملا . ولكنك لو أمعنت النظر لوجدت فيه أخطاء عديدة :

أولا : ان الحيثية الأساسية للانسان فى ضوء هذا التفسير هى التمدن .. أما العناصر الأخرى فلا تجد لها مكانا الا كتوابع لهذه الحيثية الأساسية . هذا بالرغم من ان الأصل فى الانسان هو كونه ذا روح ، أما جميع الحيثيات الأخرى فهى مظاهر أو توابع او مقتضيات لهذا الأصل .

ثانيا : لقد تغير المطلوب من الانسان بتغير النظرة اليه .

ففى ضوء هذا التفسير يكون المطلوب أساسا هو كل مايساعد الانسان على النهوض بتمدنه ، بالرغم من ان المطلوب الأساسى يجب ان يكون الشيء الذى يكون مطلوبا منه كوجود روحانى .

ثالثا : والأمر لا يتوقف عند هذا الحد ، بل انك اذا نظرت الى الأمر من الناحية العملية ، فستجد أن كل شيء قد اختفى ! فمنبع جميع نشاطات الانسان ومظاهره هو الروح . ولذلك لا يمكن توقع نتيجة هامة فى الحياة الانسانية ، الا اذا كان يسندها اعتقاد راسخ فى نفس الانسان وأعماقه بضرورة تلك النتيجة وحتميتها لوجوده .

ان جميع هذه الأخطاء قد وقع فيها التفسير الآنف الذكر للاسلام . لقد جعل هذا التفسير « النظام » محور التصور الدينى وحكمته الجامعة ، ولذلك أصبح « النظام » الحيثية الأولى للاسلام فى هذا التفسير ، فلم يعد بالامكان فهم الاسلام الا فى ضوء النظام !! وكانت النتيجة أن جميع اجزاء الدين قد ابتعدت عن أماكنها الحقيقية رغم وجودها فى هذا التفسير الجامع . ان جميع أركان الاسلام أجزاء هذا التفسير ، ولكن كأجزاء تابعة للنظام . فالعقائد جزء من هذا التفسير لأنها « الأسس الفكرية » لنظام الحياة هذا . والعبادات جزء من هذا التفسير لأنها « منهاج التربية » لاعداد رجال هذا النظام . والأحكام الاسلامية حول السلوك الاجتماعى جزء من هذا التفسير ، لأنها « القوانين الأخلاقية » التى يراعيها رجال هذا النظام فى حياتهم الاجتماعية . والحدود والقوانين جزء من هذا التفسير لأنها « الأساس الحضارى (التمدنى) » لهذا النظام . والخلافة والامارة جزء من هذا التفسير لأنها تعطى النظام صفة الادارة القاهرة الرادعة وتمكنه من تنفيذ القوانين .

وكانت النتيجة الطبيعية لهذا التفسير أن تغير المطلوب الحقيقى .

لقد برز الدين — بوصفه نظاما — بروزا عظيما فى خريطة هذا التفسير ، وأصبح جانبه الحقيقى — عبادة الله ومراقبته — فى غاية الضعف والاهمال .

وانحطت الحيثية الأساسية الداخلية للدين بينما طفت عليه حيثيته الخارجية . فكما ان مسئولية الانسان فى التفسير الاجتماعى كانت تغيير الأحوال الاجتماعية وتحسينها وليس

تحسين الروح والفكر ، ففى هذا التفسير اصبح هدف الكفاح الدينى هو قلب النظام الباطل لاقامة النظام الحق ، بينما كان الهدف الحقيقى للمسلم فى دنياه ولاجل الفوز فى الآخرة ، هو المجاهدة للحصول على الصلة القلبية والروحانية مع ربه ، وهو الشيء الذى قد اصطلح له القرآن الكريم كلمات الذكر والشكر ، الخشية والانابة ، التضرع والاخبات وغيرها .

وكانت نتيجة عدم التطابق التام بين الفطرة والواقع أن منيت هذه النظرية بفشل ذريع فى أول تجربة لها . لقد خلقت « النظرية الكاملة » للدين مؤمنين ناقصين .. فلم تنبت اية اجزاء الشجرة فى صورتها المطلوبة ، بسبب عدم وضع البذرة فى مكانها الصحيح. ان العلاقة بين العبد وربه ، وهى علاقة على أعظم درجة من الرفعة واللطف ، قد أصبحت فى خريطة هذا التفسير علاقة سياسية ! .

وهذا هو السبب فى أن هذه النظرية لا تطابق آى القرآن الكريم ، كما أن سير السلف الصالح ليست بكاملة على «مقياس» هذه النظرية . ان القرآن الكريم لا يحتوى على آية واحدة صريحة تدعم الخريطة الدينية التى اعدها هذا التفسير . ان خلاصة هذه الخريطة ان الدين هو النظام الكامل للحياة الاسلامية، وان الكفاح لاقامة هذا النظام على الأرض هو الواجب الاسلامى الملقى على عاتق المؤمنين .

ولكن كتاب الله لا يحتوى على فقرة ما تدل على هذا الهدف دلالة قاطعة .

هذا هو الخطأ الأيديولوجى فى هذا التفسير . أما من الناحية العملية فان تاريخ الأمة كله يفتقر الى مجاهد واحد كافح لأجل « حركة ثورية جامعة » من هذا النوع . لقد انتشر المسلمون فى معظم انحاء الأرض وقاموا بالدعوة الى الاسلام واقاموا دولا اسلامية فى بلاد كثيرة . ولكن لم يحدث فى مكان ما انهم بدءوا دعوتهم بالمناداة بالثورة الاسلامية ، أو باقامة « الحكومة الالهية » .. واذا كان بعض كتاب هذا التفسير قد حاول البحث عن بعض الأمثلة لمثل هذه الدعوة فى تاريخ الاسلام ، فان ذلك لا يعد من

باب التاريخ بل هو تلفيق التاريخ . اما اذا ادعى مخترع هذا التفسير ان جميع الحركات الاسلامية فى تاريخنا الطويل كانت حركات ناقصة ، أو أن أصحابها لم يكونوا على دراية كاملة بالدين فان مثل هذا التأويل انما هو اعتراف بخطأ هذا التفسير وعدم علاقته بالاسلام الصحيح ، ليس غير . وذلك لأن الاعتراف بخطأ افكار رجل ما اهون من ان نعتبر تاريخ الدعوة الاسلامية كله ناقصا !

ان بعض الناس يشعرون بخطأ هذا التفسير ، ولكنهم يفتقدون الشعور الواضح المحدد لنوعية هذا الخطأ . ان هؤلاء الناس لم يتمكنوا من تحليل ذلك الخطأ ، ولذلك لم يفكروا ، بعد ، فى أسلوب الحل الصحيح . ان خلاصة شعورهم أن الجانب الروحى من الاسلام قد تعرض للانحطاط فى خريطة هذا التفسير بينما برز جانبه السياسى بروزا كبيرا . انهم يرون أن للمصادفة دخلا فى ذلك ، ومرده الى الظروف الخاصة التى بدأ فيها صاحب هذا التفسير يعرض افكاره . فقد كان ذلك هو عصر الطوفانات السياسية والحركات التى كانت قائمة على قدم وساق ضد الاستعمار الانجليزى وكان من جرائه أن غلب الطابع السياسى على كتاباته . والحل أمام هؤلاء هو العمل على ابراز الجوانب التى تعرضت للاهمال عن طريق الخطابة والنشر ، وبذلك نقدم التصور المتوازن للدين ، حتى تستعيد الجوانب الأخرى من الدين مكانتها الى جانب السياسة والحكم .

ولكن هذا تقدير ناقص جدا للواقع . ان هؤلاء يعتبرون ان هذا الفكر تأثر وقتى نابع من الظروف ، بينما هو تفسير جديد مستحدث للدين . وللسبب نفسه يفكر هؤلاء الناس فى اتخاذ تدابير مؤقتة . انهم يريدون تصحيح الفساد الكلى بالترميم الجزئى . ومثلهم فى هذا كمثل الطفل الذى يجد لعبة « الجغساو » (١) Jigsaw puzzle فيرتب اجزاءها على صورة الجمل ، رغم أنها للحصان فى حقيقتها . وقد يدعى أحدهم أن العنق فقط هو الذى طال فى هذا الترتيب الخاطيء واننا سنحصل

(١) هى لعبة مكونة من اجزاء خشبية ، يتم تركيبها ، فتعطى صورة معينة — المترجم .

على صورة الحصان لو انقصنا شيئا من طول العنق . والواضح أن هذا ليس تدبيرا صحيحا ، لأن كون الأجزاء خاصة بالجمل أو الحصان انما يتعلق بالحكمة الجامعة لتلك اللعبة . اما اذا خيل لأحد الناس أن الأجزاء الخاصة بالحصان : هى للجمل ، ثم يقيم صورة له ، فالذى سيحدث نتيجة لذلك ليس هو طول العنق فقط ، بل لابد أن صاحبه قد حاول اعطاء المجموعة كلها صورة الجمل بدلا من الحصان . ولذلك لا يمكن الحصول على صورة الحصان بمجرد تقصير مسافة عنق الجمل ، بل يجب وضع الأجزاء كلها من جديد فى مكانها المناسب .

* * *

التصور الصحيح للدين

ان التصور الصحيح للدين ، والذى يمكننا أن نفهم بادراكه كل أجزاء الدين ، والذى ينطبق على التاريخ الاسلامى كله : هو ان الدين فى حقيقته الأساسية ايجاد علاقة الخوف والمحبة والولاية والتوكل مع الله . والمظهر اللازم لهذه العلاقة هو « العبادة » . والنتيجة الحتمية عندما يجعل المرء الله معبوده ومطلوبه وحبيبه : أن ينفذ أوامر الله ويتجنب نواهيه فى حياته ، ويجعل ارادته تابعة لارادة الله . ولذلك ، فان كون المرء عابدا ومطيعا لربه يقتضى بالضرورة أن يسخر حياته لأجل ذلك المشروع العظيم الذى هو مشروع الله ، والذى يحب الله أن يراه قائما فى الأرض . ومن هذه النقطة تبدأ جميع جوانب تبليغ الحق ونصرة الدين تغلب على حياته . فالحكمة الجامعة للدين هى « علاقة العبد بالله » . أما الأشياء الأخرى كلها فهى مظاهر هذه العلاقة الداخلية أو مقتضيات لها . وليست حكمة الدين الجامعة هى فكرة « النظام » التى حاول بعض الناس ربط مختلف جوانب الدين النظرية والعملية على أساسها .

فالتعاليم الدينية ليست فهرسا لأحكام من نوعية أو درجة واحدة ، وهو الأمر الذى تقتضيه فكرة النظام . ان للدين حقيقة، والأشياء الأخرى كلها جوانب من تلك الحقيقة وتظهر فى حياة

المؤمن لمقتضيات شتى . وبعبارة أخرى ، فان بعض أجزاء الدين مطلوب كحقيقة ، أما البعض الآخر من أجزائه فمطلوب بصفة اضافية . والمراد بالمقتضيات الحقيقية للدين أن يكتشف المؤمن الله داخليا وحسيا ، حتى يصير عبدا لله ، ومحبا له . أما المقتضيات الاضافية فهى كل تلك الأحكام التى تعالج حياة المؤمن الخارجية ، والتى تبين سلوك أهل الايمان تجاه مختلف الظروف والمعاملات الدنيوية . والمقتضيات الحقيقية مطلوبة من كل انسان ، وفى كل الظروف ، ولا يؤثر فيها الزمن ولا الأحوال ، وهى الأصل والمطلوب الأول الذى هو سبيل الخلاص فى الحياة الآخرة . أما المقتضيات الاضافية فمطلوبة حسب الأحوال والظروف ، وتتسع دائرة تكليفها أو تنكمش حسب دائرة الاختيار والتحرك المتاحة لعبد من العباد . فاذا كان العمل بالمقتضيات الاضافية متاحا للعبد فهى مطلوبة منه بالضرورة تماما كالمقتضيات الحقيقية نفسها . أما اذا كانت الظروف غير متاحة للعمل بالمقتضيات الاضافية فأهل الايمان لا يتحملون وزر عدم التزامهم بها . فهذا التمييز بين أحكام الدين — من حقيقية واضافية — انما يوضح الفرق النوعى بين الأحكام الاسلامية . وهذا الفرق النوعى بين أحكام الدين ليس حول وجوب حكم ما أو عدم وجوبه ، بل هو عن الظروف التى يجب فيها الانصياع لحكم ما أو عدم وجوب الانصياع له . أما اذا كانت الأحكام — من كلا النوعين — واجبة ومطلوبة من العبد فى ظرف من الظروف ، فلا فرق بينهما من ناحية الأداء ، البتة .. أى أن كليهما يكون حينذاك مطلوبا بقدر واحد من الأهمية .

* * *

ان هذا الخلاف الفكرى الذى بينته آنفا ينشأ عنه الخلاف فى النظر الى المهمة ذاتها التى تقع على عاتق المؤمن بنظرية ما . فان وجود الشيء — الجامع بين مجموعة ما — يعنى وجود المجموعة كلها ، وانعدامه يعنى انعدامها كذلك . والمؤمن بنظرية ما يسعى الى تحقيق الشيء الجامع بين أجزاء المجموعة قبل أن يسعى لتحقيق أجزائها الاضافية .

والذى لاحظناه بين رجال التفسير المشار اليه آنفا ، انهم يهتمون أشد الاهتمام باقامة النظام ، ومرده الى هـذه العقلية الخاصة التى جعلت الدين « نظاما » . ولكن نرى على العكس من ذلك ان الكفاح الأساسى لدعاة الاسلام كان يرتكز على ترسيخ مفاهيم الله والآخرة فى اذهان الأمة . وكان السبب فى ذلك ان دعاتنا كانوا يؤمنون بأن هذا هو الأساس الذى تقوم عليه جميع المظاهر الدينية الأخرى .

الفصل الخامس

ما هــو الدين ؟

ان أحكام الدين مماثلة لبعضها شكلا ، ولكن انطباقها على العباد ليس مماثلا . فمثلا يأمرنا الله تعالى « أقيموا الصلاة » ، ثم يأمرنا « آتوا الزكاة » . ان الحكمين مماثلان شكلا ، وهما فى صيغة أمر واحدة . ولكن انطباقهما على المؤمنين ليس مماثلا . فالأمر بالصلاة مطلق ، وهى مطلوبة من المؤمنين فى كل الظروف ، ولكن الزكاة لا ينطبق أمرها على المؤمن الا عند اكتمال النصاب .. وهى أمر قطعى للذى اكتمل لديه النصاب ، وقطعيته بالنسبة الى ذلك المؤمن مماثلة للاحكام الأخرى القطعية كالصلاة . أما المؤمن الذى لم يكتمل لديه النصاب فليس مطلوبا منه تنفيذ هذا الحكم ، كما أنه ليس مطلوبا منه أن يسعى جهده ليمتلك قدرا من المال حتى يتمكن من الامتثال لأمر الزكاة .

ان خطأ التفسير « النظامى » للدين يكمن فى عدم فهمه النسب المختلفة بين الشريع والمشرع له ، فأعطى حيثية واحدة لكل أحكام الدين ، وبذلك أوجب تنفيذ الاسلام واقامة الدولة الالهية ، بوصفها نظام حياة كاملا . وفات هذا التفسير أن هناك أجزاء من الاسلام مطلوبة بالضرورة ، وأخرى مطلوبة عندما تتيح الظروف فرصة تنفيذها . ونحن لسنا مكلفين بحكم من الأحكام الا حسب نوعية وجوبه علينا . **فاذا كان الأمر من النوع المطلوب منا فى كل ظرف من الظروف ، فهو مطلوب منا بالضرورة ، ولن يكتمل اسلامنا فى ذلك الظرف الخاص بدون الانصياع لذلك الأمر . أما اذا كانت الظروف الخاصة بذلك الحكم غير منطبقة علينا فنحن لسنا ملزمين به . اننا لسنا ملزمين أن نسعى لخلق الظروف التى نصبح فيها مكلفين لأداء حكم من الأحكام .**

الأصل المطلوب :

والآن سوف أوضح التفسير الصحيح لعلاقتنا بمختلف أحكام الدين . ان القرآن واضح فى تبيان ان الأصل المطلوب من العبد هو عبادة الله :

« وما خلقت الجن والانس الا ليعبدون » .

الذاريات : ٥٦

وقد بين كتاب الله هذا المفهوم بأساليب مختلفة :

« يا أيها الناس اعبدوا ربكم » .

البقرة : ٢١

« واعبد ربك حتى يأتيك اليقين » .

الحجر : ٩٩

« وما أرسلنا من قبلك من رسول الا نوحى اليه أنه لا اله الا أنا فاعبدون » .

الأنبياء : ٢٥

ان هذه الآيات صريحة الدلالة على أن هدف الخلق ومسئولية المخلوق : ان يعبد خالقه . و « أصل العبودية الخضوع والتذلل » (١) ، « أصل العبودية الخضوع والذل » (٢) ، ويذكر أبو حيان الأندلسى :

« العبادة التذلل ، قاله الجمهور » (٣) .

ولهذا يستخدم القرآن الكريم كلمة (الاستكبار) فى مقابل كلمة (العبادة) :

« ان الذين يستكبرون عن عبادتى سيدخلون جهنم داخرين » .

المؤمن : ٦٠

ولتوضيح الأمر ، سأنقل فيما يلى آراء بعض العلماء والمفسرين :

عبد الله بن عباس :

« اياك نعبد : يعنى اياك نوحد ونخاف ونرجو ربنا ، لا غيرك » (٤) .

---

(١) لسان العرب .

(٢) صحاح الجوهرى .

(٣) البحر المحيط ، ج ١ ، ص ٢٣ .

(٤) الدر المنثور ، ج ١ ، ص ١٤ .

فخـر الدين الرازى :

« العبادة عبارة عن الفعل الذى يؤتى به لغرض تعظيم الغير ، وهى لا تليق الا بمن صدر عنه غاية الاكرام » (١) .

علاء الدين البغدادى :

« العبادة أقصى غاية الخضوع والتذلل وسمى العبد عبدا لذلته وانقياده » (٢) .

قمى النيسابورى :

« ان العبادة عبارة عن نهاية التعظيم فلا يليق الا لمن صدر عنه غاية الانعام وهو الله تعالى » (٣) .

القاضى البيضاوى :

« العبادة أقصى غاية الخضوع والتذلل ، ولذلك لا تستعمل الا فى الخضوع لله تعالى » (٤) .

أبو السعود :

« العبادة أقصى غاية التذلل والخضوع » (٥) .

الآلوسى البغدادى :

« العبادة أعلى مراتب الخضوع ، ولا يجوز شرعا ولا عقلا فعلها الا الله تعالى ، لأنه المستحق لذلك ، لكونه موليا لأعظم النعم من الحياة والوجود وتوابعها » (٦) .

الشيخ على المهائمى :

---

(١) التفسير الكبير ، ج ١ ، ص ١٨٩ .
(٢) تفسير الخازن ، ج ١ ، ص ١٩ .
(٣) غرائب القرآن على حاشية بن جرير ، ج ١ ، ص ٩١ .
(٤) انوار التنزيل ، ج ١ ، ص ٦ .
(٥) ارشاد العقل السليم الى مزايا القرآن .
(٦) روح المعانى ، ج ١ ، ص ٨١ .

« العبادة تذلل للغير عن اختيار لغاية تعظيمه » (١) .

لقد اتضح من هذا أن المفهوم الحقيقى للعبادة هو الخضوع والذل للمعبود ، ولكنها حين تطلق على علاقة العبد بمعبوده يدخل اليها عنصر المحبة حيث لا يمكن أن يكون خضوع المؤمن خضوعا حقيقيا الا اذا داخله عنصر الحب . ولهذا السبب دمج العلماء هذا المفهوم مع لفظة (العبادة) . يقول الحافظ ابن كثير :

« العبادة فى اللغة من الذلة ، يقال : طريق معبد ، وبعير معبد أى مذلل ، وفى الشرع عبارة عما يجمع كمال المحبة والخضوع والخوف » (٢) .

ويقول الامام ابن تيمية :

« لفظ العبودية يتضمن كمال الذل وكمال المحبة » (٣) .

وكتب الحافظ ابن القيم :

« العبادة تجمع أصلين ، غاية الحب لغاية الذل والخضوع . »(٤)

ان الأصل فى العبادة الذلة أمام الله ، وهو المفهوم الذى يطلق عليه القرآن الكريم مختلف المصطلحات ، كالخشية والتضرع والاخبات والانابة والخشوع والخضوع والقنوت . ان العبادة أن تخضع لله تماما . وعبادتك هذه ليست بأن تسجد لأحد الجبابرة والفراعنة ، بل هى عبادة معبود غاية فى الرحمة بعباده . اننا نعبد الها ، نحن مدينون له لكل ما نملكه ونمثله ، ولذلك لابد أن يدخل عنصر الحب الى الخضوع . ان العلاقة بين العبد والهه هى علاقة غاية الذل والخضوع . فحين يتضرع العبد من شدة الخشوع ، وحين تنهمر العبرات من عينيه من خشية الله ، يهدى العبد أعظم أمانيه وآماله الى معبوده بكل شوق ، وهو يجد نفسه فى أسمى كيفيات الحب الالهى :

---

(١) تفسير المهائمى ، ج ١ ، ص ٢٤ .
(٢) تفسير القرآن ، ج ١ ، ص ٢٥ .
(٣) رسالة العبودية ، ص ٢٨ .
(٤) تفسير ابن قيم ، ص ٦٥ .

« والذين آمنوا أشد حبا لله » .

البقرة : ١٦٥

ان المذلة أمام الله تكون لغاية الخشية منه ، ولكنها ليست كالخوف الذى يتولد لديك من رؤية شىء مخيف فى ظلام الليل . والحقيقة أن كيفية « الحب ــ الخوف » هذه لا يمكن التعبير عنها تعبيرا صحيحا بالكلمات المتاحة فى معاجمنا . انها كيفية تجمع بين غاية الأمل وغاية الرهبة ، ولا يتمكن العبد ــ أبدا ــ من ترجيح عنصر على العنصر الآخر . انها مزيج من الحب والخوف ، حيث يجرى الانسان نحو الذى يخافه ، ويتمنى وصال الذى يخشى عذابه . وهى اضطراب كله سكون ، وسكون كله اضطراب !

ان العبادة فى حيثيتها الحقيقية واقع حسى ، وليست واقعا خارجيا . أن الانسان ، فى التحليل النهائى ، وجود شعورى ، ولذلك لا يمكن أن تكون العبادة واقعا خارجيا بالنسبة الى الانسان ، بل لابد أن تكون واقعا شعوريا داخليا .. ولعل هذا هو السبب فى أن الله تعالى جعل التقوى نتيجة للعبادة :

« يا أيها الناس اعبدوا ربكم الذى خلقكم والذين من قبلكم لعلكم تتقون » .

البقرة : ٢١

ان العبادة فى حقيقتها الخارجية : « حياة التقوى » ، وهى فى حقيقتها الداخلية : ادراك الله ادراكا عميقا والتعلق به سبحانه بعلاقة متينة ، تلك العلاقة التى يظهر فيها العبد بكيفية « تعبد الله كأنك تراه » . ان أعلى مدارك العبادة أن يستغرق العبد فى ذكر الله وتصوره سبحانه حتى يشعر كأنه يراه ويحس به . وهذا الشعور هو منتهى العبادة . وجميع الأعمال من مناسك وطقوس العبادة طرق للوصول الى هذا المنتهى . أما اذا كان هناك من يرفض هذه الأعمال التعبدية أو يدعى عبادة الله والتقرب اليه سبحانه بدون سلوكها ، فهو كاذب فى دعواه ، لأنه لا عبادة بدون سلوك أعمالها الصحيحة المقررة .

ان العبادة تشمل الشريعة كلها ، فكل ما يأتيه المؤمن لارضاء ربه وتنفيذ أوامره ، هو من العبادة . ولكن العبادة ، فى أساسها ،

نوع معين من الأعمال **بين العبد وربه** . أما ما يقوم به العبد مع عبد آخر فهو **من مقتضيات العبادة** . أن العمل الذى يقوم بين العبد وربه مباشرة ، هو العبادة ذاتها . فالعبد يعبد ربه مباشرة ، حين يصلى .. انه يجد معبوده نفسه ، دون حاجز . وعلى العكس من ذلك ، فان العبد حين ينفذ أوامر الله ، فهو يفعل ذلك مراعاة لمقتضيات عبادته الله .

ان هذه المقتضيات واجبة كالعبادة نفسها ، ولكن يجب الا نتجاهل الفرق الكبير بين نوعى العبادة (العمل التعبدى نفسه ثم مقتضياته) ، والا ضاع منا التصور الصحيح للاعمال الدينية ، وذلك لأن المقتضيات دائما ثانوية ، ولا تكون مطلوبة الا لسبب شىء آخر أساسى ، بينما يكون الشىء الأساسى مطلوبا لذاته وبصفة مطلقة . ومثاله كأن نقول : « من مقتضيات الاسلام أن يورث المسلم تركته حسب القانون الآلهى » .. ليس معنى هذا القول انه يجب على كل مسلم أن يحاول امتلاك بعض الأموال والعقارات حتى يتمكن من تنفيذ الأحكام الاسلامية الخاصة بالميراث . ان هذا القول يعنى فقط ، أن على كل مسلم أن يقسم ماله بين من يستحقونها من ذويه حسب القوانين الاسلامية .. ان هذا الواجب مطلوب ممن يمتلكون شيئا ، وهو ليس بمطلوب ممن لا يمتلكون شيئا .

يتضح من هذا الشرح أن علاقة الحب والخشية بالله ليس فقط « عاملا » من عوامل الحياة الاسلامية ، بل هو المطلوب الاصيل الذى لابد ان نجاهد من أجله فى الحياة الدنيا . يجب أن تتجه كافة أعمالنا وأفعالنا نحو هذا الهدف المنشود العظيم الذى وصفه العلماء بمصطلحات « الوصول الى الله » و « التعلق بالله » . وبعبارة أخرى ، ليست علاقتنا بالله علاقة خارجية وعقلية افتراضية ، كأن نتوهم بأن اتياننا هذا العمل أو ذاك سيجعل رب السموات يرضى عن سلوكنا . بل لابد من التقدم الى الامام ، لابد من تكوين علاقة مباشرة مع الله .

ان افعال العبادة فى صورتها الظاهرة تنفيذ لأحكام الله ، ولكن تلك الأفعال هى الدرب الذى يسلكه العبد فى رحلته للقاء ربه ،

وهو يناجي ربه ، يتضرع اليه ، ويلجأ اليه بكل مشاعره حبا وخشية ، يشعر بأنه قد التقى بنفسه بين يدى معبوده العظيم . ان لقاء العبد بربه هكذا ، وفى هذا العالم هو أسمى حقائق الدين، وهو الهدف النهائى لجميع الأفعال التعبدية . ان الذى وجد ربه فى دنياه سيجده فى أخراه ، والذى حرم من لقاء ربه فى دنياه سيظل محروما منه فى أخراه .

ينبغى الا يسىء أحد الفهم ، فيزعم اننى أؤيد هنا النظرية القائلة بأن كمال العبد فى أن يلتقى بربه فى هذه الدنيا ، وقد بالغ بعض دعاة هذه النظرية حتى ادعى أن « المعراج النبوى » هو المثل الأعلى الذى ينبغى ان نجهد انفسنا للوصول اليه ! .

ان هؤلاء وأمثالهم قد وقعوا فى خطأ عظيم . لقد اعتبروا علاقة العبد بالله حقيقة مادية ، فى حين انها قضية روحانية حسية . ان القرب الحقيقى من الله تعالى سيكون فى الآخرة ، وليس فى مكان آخر . ولن يحصل على ذلك القرب يوم الدين سوى الذين تمتعوا بعبيرها فى هذه الدنيا . والفارق بينهما أن القرب الذى نتمتع به فى هذا العالم يكون قربا حسيا ، بينما القرب الأخروى سيكون واقعا حقيقيا .

ونظرا لهذا الاعتبارات لا يمكن تعيين المطلوب الحقيقى من الدين بأن ندعى ان « هدفنا هو اقامة النظام الحق فى الدنيا » . ان هذا الهدف ـ مع صدقه واهميته الحيوية المصيرية ـ لا ينطبق على الهدف الأساسى الذى نزل من اجله الدين الالهى . وذلك لأننا نجعل من أمر خارجى الحقيقة النهائية للدين ، بينما حقيقة الدين النهائية حقيقة باطنية . ان محطنا الأخير فى الحياة الدنيا أن نصل الى الله كمعبود حقيقى وأن نتعلق به حسيا ، وليس أن نتمكن من اقامة هيكل اجتماعى وسياسى او أن نكون قد جاهدنا لاقامته . الا انه اذا كانت أحوال أهل الايمان تمكنهم من اقامة حكم اسلامى او كانوا يستطيعون اقامته بعد الخوض فى نوع من أنواع الجهاد ، فلابد لهم من ان يقوموا بواجبهم هذا أحسن قيام ، وفى أكمل صورة ، بدون أن يعتبروه الهدف النهائى للدين .

مقتضيات العبادة :

أن الشىء المطلوب من المسلم ، أصلا وأساسا ، هو الخضوع لله تعالى ، ويسمى العبادة . ولكن الانسان لم يخلق فى فراغ ، بل هو يعيش عالم الوقائع ، ولذلك لابد أن تكون ردود فعله تجاه هذه الوقائع مطابقة لمقتضيات عبوديته لله . وردود الفعل هذه تتمثل فى جوانب شتى :

(أ) هناك جانب يتعلق بالأحوال الخارجية . فكلما واجه المسلم قضية من القضايا فى نشاطه الدنيوى وأمكنه سلوك طريقين فى مواجهة تلك القضية : طريق الى الله ، وطريق الى الطاغوت والنفس ، تقتضى العبودية ان يسلك المسلم طريق الله تاركا جميع المسالك الأخرى ، ليعبده فى عالمه الخارجى بعد أن اتخذه معبودا فى عالمه الداخلى .

ان مظهر العبادة هذا ، الذى يظهر فى حياة المسلم تجاه الأحداث والأحوال الدنيوية ، يسمى **الطاعة** . واماكن هذه الطاعة هى جميع الأماكن التى يواجهها المسلم فى حياته ، كالبيت والمكتب والسوق والبرلمان ، الخ ..

(ب) وهناك جانب آخر يتعلق بجميع عباد الله الغافلين عن ربهم ، والذين سيصلون نار الجحيم بسبب هذه الغفلة . وقضيتهم الدقيقة هذه تحتم على المؤمن أن يحاول هدايتهم الى الدين الحق الذى هو نفسه قد اهتدى اليه . وهذا المظهر من العبادة الذى يظهر بالنسبة الى البشر غير المهتدين ، يسمى **الشهادة (١)** ، أو التبليغ ، أو الدعوة الى الاسلام .

(ج) والجانب الثالث من مقتضيات العبادة يتعلق بالمسلمين، هؤلاء الذين آمنوا بالله ورسوله . ان الله يأمرنا باقامة نظام يجمعهم لصلاحهم ولنصحهم فيما بينهم ، وهذا ما يطلق عليه القرآن الكريم مصطلح : **« التواصى بالحق والتواصى بالصبر »** ، وهو

(١) هذا مأخوذ من قوله عليه السلام : « ألا هل بلغت ؟ اللهم فاشهد » . فالداعى الى الحق يسأل الله الشهادة له بتبليغه .

يسمى أيضا بالأمر بالمعروف والنهى عن المنكر . وهذا المظهر الثالث من مظاهر العبادة يتعلق بجماعة المسلمين نفسها .

(د) والجانب الرابع من هذه الجوانب هو : **((نصرة الدين))** والدفاع عن الاسلام كلما تعرض لأى مكروه .

أن هذا المقتضى الأخير ليس بمنفصل عن المقتضيات الثلاثة الآنفة الذكر ، ولكن وضعناه على حدة لبيان أهميته الخاصة .

* * *

ولنناقش الآن هذه المقتضيات الأربعة .

أولا ــ **الطاعة :**

أبين ــ بادىء ذى بدء ــ ان الطاعة والعبادة ليستا شيئين منفصلين . ان تقسيمنا هذا اعتبارى فقط ، وقد اخترناه لايضاح نوعية الحكمين ، مثلما يفعل الفقهاء حين يطلقون عليها مصطلح « الأحكام التعبدية » لفصلها وتمييزها عن أحكام الأخلاق والمعاملات ، مع علمنا بأن الأخلاق والمعاملات تدخل أيضا دائرة العبادة ، بأسلوب أو آخر ، وهى ليست بمنفصلة عنها .

والطاعة قسمان : فردية واجتماعية .

والمراد من **الطاعة الفردية** الامتثال لأحكام الله فى الشئون المتعلقة بحياة الانسان الذاتية ، وتدخل فيها جميع الأحكام الخاصة بالأخلاق والمعاملات وكل ما يقوم به الانسان بارادته الشخصية وكل ما كان باستطاعته أن يسلك فيه سبيلا دون آخر . ان الامتثال لأوامر الله فى هذه الشئون طاعة فردية . ولا يجوز لأى مسلم يعلم مشيئة الله فى شأن من الشئون أن ينحرف عن الامتثال لها :

« وما كان لمؤمن ولا مؤمنة اذا قضى الله ورسوله أمرا ، ان يكون لهم الخيرة من أمرهم ، ومن يعص الله ورسوله فقد ضل ضلالا مبينا » .

« الاحزاب » : ٣٦

هذه الطاعة الفردية حق من حقوق الله على كل عبد . ولا يمكن اعتبار أحد ، كائنا من كان ، عابدا لله سبحانه وتعالى ، ما لم يمتثل لأوامره سبحانه فى حياته الخاصة . **فاذا كانت العبادة أن يسلم العبد داخله لربه ، فالطاعة أن يسلم خارجه له تعالى .** انه يجب على كل مؤمن ومؤمنة أن يطيع الله طاعة كاملة فى كل صغيرة وكبيرة من شئون الدنيا التى تواجهه فى معترك الحياة . ومن مقتضيات الطاعة أن يطيع العبد ربه حتى فى طعامه وشرابه :

« يا أيها الذين آمنوا كلوا من طيبات ما رزقناكم واشكروا لله ، أن كنتم اياه تعبدون » .

(البقرة) : ١٧٢

والقسم الثانى من هذه الأحكام ، الذى أطلق عليه اسم **الطاعة الاجتماعية** ، لا يخضع لمشيئة فرد واحد من أفراد الأمة ، بل يجب الامتثال له حين يكون المجتمع كله مستعدا لتنفيذه . لقد نزلت أحكام الطاعة الاجتماعية حين كان أهل الايمان قد تمكنوا من اقامة نظام سياسى بينهم ، وكانوا قد أصبحوا قادرين على ادارة الشئون السياسية وتنفيذ الأحكام الاجتماعية بأنفسهم .

ان المسئول عن الأحكام الاجتماعية فى الشريعة هو المجتمع المسلم القادر ، وليس فردا أو عدة أفراد منفصلين متفرقين .

اننا نرى فى تاريخ بنى اسرائيل أن الأحكام القانونية من التوراة لم تنزل عليهم أثناء وجودهم فى مصر ، لكن حين أصبحوا طائفة حرة ذات ارادة ــ بعد الخروج من مصر ــ أرسل الله اليهم تلك القوانين . وهذا ما حدث مع الاسلام . فلم ينزل من الشريعة بمكة الا ذلك الجزء المطلوب من كل مؤمن ومؤمنة ، والذى لابد من الامتثال له فى كل الظروف ، أما الجزء الآخر ــ الأحكام الاجتماعية ــ فقد نزل بعدأن حاز أهل الايمان السلطة السياسية عقب الهجرة .

ان هذا الترتيب فى نزول نوعى الأحكام يبين أن أهل الايمان مكلفون ــ فى الظروف العادية ــ بذلك الجزء فحسب الذى نزل

قبل تمكن المسلمين من السلطة السياسية ، أما الأحكام الأخرى فتكون مطلوبة حين يتمكنون من السلطة التى لابد منها لتنفيذ تلك الأحكام .

ان نزول الأحكام الشرعية الاجتماعية عند اتساع دائرة الاختيار فقط وليس قبله ، يبين ان هذه الأحكام ليست مطلوبة بصفة مطلقة ، بل هى مطلوبة فى أحوال وظروف معينة . ويمكن القول ـ بعد النظر فى أحوال جماعة معينة من أهل الايمان ـ بأن هذه الأحكام مطلوبة منهم او غير مطلوبة . فالحقيقة ان المسئولين عن تنفيذ الأحكام التمدنية والاجتماعية من الدين هم أولئك المؤمنون الذين يكونون قد حازوا بالفعل على القدرة على تنفيذها. أما المؤمنون الذين لم يملكوا بعد الا دائرة اختيار ضيقة فليس بمطلوب منهم ان يحاولوا ـ بالضرورة ـ تنفيذ الأحكام الخاصة بالدولة والمجتمع .

ان تنفيذ الأحكام طلب عملى ، ولا يمكن توجيه طلب ما الا الى القادر على تنفيذه وبقدر ما يكون قادرا . ففى الشريعة مقياس واضح : « **لا يكلف الله نفسا الا وسعها** » (٢٨٦ البقرة) . ان الله لا يكلف نفسا ما ليس بوسعها ، فكيف يمكننا أن نعتبر بعض أهل الايمان مكلفين بأحكام هم غير قادرين على تنفيذها ؟ أما اذا عرض أحد الناس الخريطة الكاملة لجميع أحكام الدين وادعى أن جميع المؤمنين مكلفون بها فى جميع الظروف ، فمثله كمثل الذى يشير الى احكام جميع أنواع الزكاة ثم يدعى أن جميع المسلمين مكلفون بالسعى لامتلاك جميع انواع الثروات حتى يمتثلوا لجميع انواع أحكام الزكاة .

فالواضح أن مقتضيات الدين ليست مطلوبة من المؤمنين بصفة مطلقة ، بل هى مطلوبة بحسب أحوالهم فكلما اتسعت دائرة اختيار أهل الايمان اتسعت دائرة مقتضيات الدين المطلوبة منهم ، والعكس بالعكس .

فعندما يكون المؤمن وحيدا لا يكون المطلوب منه سوى الأحكام المتعلقة به كفرد . ان المؤمن اذا كان وحيدا لا يهتم الا بمجال ذاته

وحده ، أما اذا كان فى عشيرة وأسرة فستنطبق عليه وعليها احكام العشيرة والأسرة . وحين تتطور العشيرة بدورها الى مجتمع قادر فسيكون المطلوب من ذلك المجتمع تنفيذ جميع الأحكام الخاصة بالمجتمع . وحيث لا يمكن تسيير الشئون ـ على هذا المستوى الأخير ـ بدون اقامة حكم سياسى ، فسيصبح واجب ذلك المجتمع القادر ـ تلقائيا ـ أن يقيم على نفسه أميرا سياسيا ، وينفذ الأحكام الاسلامية تحت قيادته .

وقضية نصب الامام تتعلق بهذه الصورة الأخيرة ، وهى واجبة :

« نصب الامامة عندنا واجب » (شرح المواقف)

« لابد للأمة من امام » (شرح المقاصد)

« المسلمون لابد لهم من امام » (عقائد النسفى)

وتتضح أهمية قضية الامامة من أن كل كتب الفقه وعلم الكلام لا تخلو منها ، ولم تختلف بشأنها جميع فرق الأمة ، ما عدا فرقة « النجدات » البائدة من الخوارج . وقد كتب الامام ابن حزم :

« اتفق جميع أهل السنة وجميع المرجئة وجميع الخوارج على وجوب الامامة حاشا النجدات من الخوارج » (١) .

واذا كان هناك من خلاف فى هذا الشأن فهو لا يعدو أن أهل السنة والجماعة قد اعتبروا الامامة واجبة سمعا ، أما بعض الفرق كالزيدية والمعتزلة فقد اعتبروها واجبة عقلا .

ان قضية اقامة الامامة لا تنطبق الا على مجتمع مسلم تمكنه حالته الاجتماعية من اقامة تنظيم اجتماعى مستقل . ان المؤمنين المتفرقين المنتشرين لا يمكن اعتبارهم مسئولين عن اقامة الامامة . وبعبارة أخرى ، فان هذا الحكم ليس مطلقا ، بل يعنى أنه يجب

---

(١) الملل والنحل ، ص ٧٢ .

على كل مجتمع مسلم يتمتع بمركز اجتماعى حر ان ينظم مجتمعه على أسس الاسلام ، وان يقيم على راسه اميرا سياسيا يشرف على تنفيذ اوامر الدين . ان الامامة بداية للسيادة الاجتماعية لمجتمع المسلمين ، ولا يمكن توقع وجودها الا حيث تسمح الظروف بالسيادة الاسلامية . أما حيث لا وجود للاختيار الاجتماعى ، فكيف لنا بالامامة ؟ وعلى اى اساس سنكلف مسلمى ذلك المجتمع الفاقد القدرة والصلاحية بأن يقيموا لانفسهم الامامة ؟ !

* * *

ويمكن ان يثار هنا سؤال : اذا لم نكن مجتمعا حرا ، فكيف لنا به ؟

ان هذا السؤال نتاج فكر معوج . ان هذا السؤال يثار حين نحصر هدف الدين فى اقامة الدولة الالهية .

فاذا كان الهدف المقرر هو اقامة الدولة ، فان كل كفاح سيبدأ تلقائيا ـ باعتبار التغيير السياسى هدفا اساسيا ، وجميع تدابير المكافحين لذلك الهدف ستكون موجهة نحو الهدف الأساسى : التغيير السياسى . ولكن الحقيقة أن قضية التغيير السياسى ليست هدفا مطلوبا من المؤمن ليناضل من أجله وحده ، بل هى تأتى ضمن اطاعة الأحكام ، حسب الظروف المحيطة بالمؤمن . فكما ان أحكام الزكاة لا تجعل الثراء هدفا للمؤمن (لأن تلك الأحكام تخص الذين يمتلكون المال ، والذين يستطيعون التصرف فى أموالهم) كذلك تعنى الأحكام السياسية فى الاسلام انه حين يصبح المجتمع المسلم ذا اختيار فى القضايا السياسية ينبغى له أن يستعمل اختياره بأسلوب معين يوافق المشيئة الالهية . ان جميع أحكام الطاعة تحدد لنا الأسلوب الصحيح لمعالجة الاختيار .

وللسبب نفسه لا تجب اطاعة هذا النوع من الأحكام الا حين تصبح مطلوبة من المؤمن بالفعل وتصبح تحت دائرة تصرفه واختياره .

أما المطلوب فى الأحوال العامة ، فهو أن يسلك أهل الايمان طرق العبادة والطاعة ، ثم يبدأوا فى الانذار والتبشير ، ويحاولوا هداية العباد الضالين الى الحق . ولابد أن نستمر فى اداء هذه المهمة فى كل الأحوال وكل الأساليب الممكنة ، حتى نلقى الرفيق الأعلى ونحن نجاهد فى سبيل هذا الهدف ، أو يخلق لنا ربنا الأحوال الملائمة فتقع الرقعة الأرضية ، التى نجاهد فيها ، تحت طاعتنا ، فنقيم عليها نظام خلافة الله ، وهذا هو السبب فى أن القرآن الكريم لم يجعل الخلافة والحكومة هدفا للحركة الاسلامية ، بل وعد المسلمين بها ، وجعلها انعاما للمجاهدين .

هذه هى الحيثية القانونية لهذه الأحكام الخاصة بالطاعة .

أما الحكومة والسلطة فليس الجانب الوحيد لاهميتها ـ للمؤمن ـ أنها تمكنه من تنفيذ قوانين الله ، بل لابد منها أيضا لأنها وسيلة التمكين فى الأرض ، وبها يتم تنفيذ المقتضيات غير السياسية الحيوية . وهى لذلك ، ستظل رغبة محمودة لأهل الايمان من غير المكلفين بتنفيذ الأحكام الاجتماعية ، وقد اعتبرها ربهم الكريم : **« وأخرى تحبونها »** . اما اذا كانت الاحوال مؤاتية فالجهاد للظفر بها هو عين المطلوب .

ثانيا ـ الشهادة :

ان المقتضى الثانى من مقتضيات العبادة ما نسميه بالشهادة أو الدعوة الى الاسلام ، ومعناه أن تصل الدعوة الى جميع عباد الله ، حتى لا يزعم أحدهم يوم القيامة أن الدعوة لم تصل اليه ، وذلك لأن العبد الذى لا تبلغه الدعوة لا يتحمل مسئولية ضلاله . والمسلمون هم الذين عليهم تبعة هذه الدعوة أو الشهادة اليوم :

« رسلا مبشرين ومنذرين لئلا يكون للناس على الله حجة بعد الرسل »

(النساء : ١٦٥)

لقد ظن بعض الناس ، فى الأزمنة الحديثة ، أن الدعوة تقتضى عرض الاسلام أمام العالم كأحسن وأكمل نظام للحياة . ان هذه الفكرة ليست خاطئة ، فى حقيقتها ، ولا اطالب بنبذها .

ان الحكمة الكلامية قد تستدعى فى بعض الأحايين أن نعرض الاسلام كأحسن واكمل نظام للحياة . ولكن هذا العرض لن يتجاوز الضرورة الكلامية ، اما اذا جعلنا كون الاسلام نظاما جيدا هو الأساس الذى نزل من اجله الاسلام ، فستفقد دعوتنا صدقها .

اننا لو عرضنا الاسلام كنظام حياة جيد ، فسيظن الآخرون ان ديننا محاولة – كالمحاولات الأخرى – لحل مشكلات الانسان. وبعبارة اخرى ، اننا حين نطرح القضية على هذا الأساس ، فنحن ننذر الآخرين بأنهم فى حالة تركهم الاسلام سيتعرضون لمشكلات سياسية واقتصادية فى هذه الدنيا ، فى حين ان القرآن يخبرنا ان الرسل قد نزلوا لانذار الناس من عذاب الآخرة :

« يلقى الروح من أمره على من يشاء من عباده ، لينذر يوم التلاق » .

غافر : ١٥

* * *

ان منتهى هذه الدعوة – بالنسبة للمدعو اليها – ان يقبل الدعوة ويصلح حياته فى ضوئها ، أما منتهاها بالنسبة الى الداعى فهو أن يبلغ الآخرين رسالته بأقصى وأقوى ما لديه من اساليب الدعوة ، حتى يبين للمدعوين أمر دعوته فلا يبقى لهم عذر من عدم وصول الدعوة اليهم . ولذلك كان مقياس اتمام الحجة للأنبياء : ان يبلغوا رسالتهم لشعوبهم أحسن بلاغ ، ولم يكونوا مكلفين بشىء اكثر من ذلك . ان جميع الأقوام التى يذكرها القرآن الكريم بأنها لم تؤمن برسالات انبيائها وعصتهم فحق عليها العذاب ، هى الأقوام التى ابلغها انبياؤها الدعوة عن طريق الخطب والأحاديث، وليس اكثر من ذلك . وهذا هو السر فى ان جميع الكلمات التى استخدمها القرآن الكريم للتعبير عن هذا المقتضى ، هى كلمات تفيد معنى الابلاغ والاعلام . وللتدليل على هذا سأنقل بعض الآيات التى وردت فى هذا الصدد :

الصدع بالأمر :

« فاصدع بما تؤمر » **الحجر : ٩٤**

تبيين الذكر :

« وأنزلنا اليك الذكر لتبين للناس » النحل : ٤٤

ايذان الوحى :

« فان تولوا فقل : آذنتكم على سواء »

الأنبياء : ١٠٩

ابلاغ الرسالة :

رد وقال : « يا قوم لقد ابلغتكم رسالة ربى ، ونصحت لكم » .

الأعراف : ٧٩

قص الآيات :

« يا بنى آدم اما يأتينكم رسل منكم يقصون عليكم آياتى »

الأعراف : ٣٥

قراءة القرآن :

« وقرآنا فرقناه لتقرأه على الناس على مكث »

الاسراء : ١٠٦

تلاوة الكتاب :

« أو لم يكفهم انا انزلنا عليك الكتاب يتلى عليهم »

العنكبوت : ٥١

الانذار والتبشير :

« وما أرسلناك الا كافة للناس بشيرا ونذيرا »

سبأ : ٢٨

نداء للايمان :

« ربنا اننا سمعنا مناديا ينادى للايمان » آل عمران : ١٩٣

الدعوة الى الاسلام :

« ومن أظلم ممن افترى على الله الكذب وهو يدعى الى الاسلام »

الصف : ٧

تبليغ ما انزل الله :

« يا أيها الرسول بلغ ما انزل اليك من ربك » المائدة : ٦٧

التذكير بأيام الله :

« وذكرهم بأيام الله » ابراهيم : ٥

ان الداعى يشرع فى مهمته بهذه العقلية . انه يبتغى ابلاغ دعوته الى كل الناس ، مستخدما كل ما لديه من المحبة لهم والصدق . أما الاحداث الأخرى التى تقع بعد ذلك ، خلال التبليغ أو بعده — فهى ليست من صميم عمل الداعى. فمن الممكن ان يحين أجل الداعى وهو لما يدعو قومه الى الدين بعد . ومن الممكن أن تقبل الشخصيات الكبيرة ، فى محيط الداعى دعوة الدين فتنتشر فجأة فى المنطقة كلها . ومن الممكن ان يتصدى له الأعداء ويكيدوا لانهاء دعوته بأنفسهم أو بالتواطؤ مع السلطة . ومن الممكن أن يخلق الله ظروفا تساعد الداعى أو اتباعه من بعده على الحصول على مقاليد السلطة . ومن الممكن أن يكون الحصول على مقاليد السلطة عملا سياسيا بحتا يرجع الى براعة القائمين بالدعوة فى السياسة ، ومن الممكن على العكس من ذلك ، أن تكون دعوتهم قد أثرت فى قطاعات شاسعة من السكان فيظهر مجتمع منظم .

ان كل هذه الصور ممكنة الحدوث خلال اعمال الدعوة ، ولها أمثلة كثيرة فى تاريخ الدعوة الاسلامية . ان صورة ما من هذه الصور ليست مقياسا ثابتا للدعوة ، حتى يمكننا قياس نجاح الداعى بمقارنتها . ان الشرط الوحيد للدعوة ان يقوم الداعى بابلاغ رسالته « بقول بليغ » ، وبكامل النصح ، وان يستمر فى بلاغه مهما صادفه من عقبات . كل ما يحدث بعد هذا هو من النتائج الدنيوية للدعوة وتعد من وقائع تاريخ الدعوة . فالمطلوب من الداعى ان يبلغ رسالته بأقصى ما لديه من القدرة ، ويواصل بلاغه حتى الموت أو حتى يتيقن انه قد أصبح عاجزا عن الاستمرار .

أما الوقائع الأخرى التى تحدث خلال دعوته فهى احداث تقع من قبل المدعوين الى الدعوة وليس من قبل الداعى نفسه . انه لا وجود لفهرس كامل لأعمال الداعى ، كما أن الفرق بين نوعية أعمال الدعوة لا يقوم دليلا على كون عمل أحد الدعاة ناقصا أو كاملا .

ان الأمر الآخر الذى يجب ملاحظته ، هو ان الدعوة بين غير المسلمين لا تستوجب وضع الدين كله أمامهم مرة واحدة بصورة غير منقوصة . بل يجب أن نضع أمامهم الحقائق الأساسية اولا ، كحقائق الله والرسالة والآخرة ، وبعد اقتناعهم بهذه الحقائق الاساسية يمكنهم أن يقتنعوا بالأحكام والمقتضيات المتفرعة منها ، ولذلك ليس من الكياسة اعلامهم المقتضيات فى اول الأمر قبل شرح الحقائق الأساسية لهم . لقد روى الشيخان ان الرسول الكريم حين ارسل معاذا الى اليمن أوصاه (١) : « انك ستأتى قوما من أهل الكتاب فاذا جئتهم فادعهم الى أن يشهدوا ان لا اله الا الله .. » وهذا هو السر فى أن جميع الأنبياء كانوا يأتون بالأحكام الأساسية ، فى بداية دعوتهم ، وكانوا يستمرون فى ابلاغها لاقوامهم لمدد طويلة . وكلما انفرجت الأحوال العملية بعد ذلك نزلت الأحكام الفرعية . ولم يحدث أبدا ان بعث نبى ومعه نظام اجتماعى سياسى كامل حتى يضعه أمام شعبه ويطالبهم باقامة الدولة الالهية من فورهم ، لتنفيذ جميع أحكام الدين مرة واحدة .

ثالثا — الأمر بالمعروف والنهى عن المنكر :

ان المقتضى الثالث للدين يظهر بالنسبة الى جماعة المؤمنين انفسهم . ان الله يحب أن تنشأ بين المسلمين روح النصح . فلا يعيش المؤمن لصلاح ذاته وحدها ، بل يجب أن يسعى لصلاح وهداية اخوانه المؤمنين الذين يعيش بينهم . ان روح العبودية تحتم على عباد الله أن يتجمعوا فى وحدة قوية ، وأن يجاهدوا

---

(١) البخارى ، كتاب المغازى ، باب « بعث أبى موسى ومعاذ الى اليمن » : ٢٠٦/٥ . ومسلم ، كتاب الايمان ، باب « الأمر بالايمان بالله » : ٣٧/١ -

لاصلاح وترقية انفسهم ، كالحرفيين الذين ينشئون لأنفسهم نقابة لحماية مهنتهم ومصالحهم .

ولهذا المقتضى قسمان : فردى واجتماعى .

ان المطلوب من **الجانب الفردى** لهذا المقتضى أن يجاهد كل مسلم حسب مقدرته وكفاءته لاصلاح وحماية اخوته الآخرين ، وهذا ما قصده النبى الكريم حين قال : « الدين النصيحة » (١). فالدين يقتضى أن يكون كل مسلم ناصحا لأخيه . يقول الصحابى جرير بن عبد الله رضى الله عنه :

« بايعت رسول الله على اقامة الصلاة وايتاء الزكاة والنصح لكل مسلم » (٢) .

ويسمى هذا الجانب بالامر بالمعروف والنهى عن المنكر ، وفيه يقول الامام النووى :

« قد تطابق على وجوب الامر بالمعروف والنهى عن المنكر الكتاب والسنة واجماع الأمة ، وهو أيضا من النصيحة التى هى من الدين » (٣) .

وهذا هو العمل الذى وصفه الله فى سورة العصر ب « وتواصوا بالحق وتواصوا بالصبر » . لقد أوضح الله بهذا المصطلح جانبين هامين من نصح المؤمن لأخيه . فيجب أولا أن نرغب غير المؤمنين فيما يبتغيه الله من عباده ، وثانيا يجب أن نقف مع الذين يدخلون دين الله فى وجه الصعوبات التى يواجهونها بعد الانضمام الى صفوف المؤمنين . وقد شرح احد المفسرين هذا المقتضى على النحو التالى :

(١) مسلم ، كتاب الايمان ، باب « بيان أنه لا يدخل الجنة الا المؤمنون » : ٥٣/١ .

(٢) البخارى : كتاب الايمان ، باب « قول النبى — صلى الله عليه وسلم — الدين النصيحة » : ٢٢/١ .

(٣) الطبعة الهندية ، ج ١ ، ص ١٥ .

« .. (وتواصوا بالحق) بيان لتكميلهم لغيرهم ، اى وصى بعضهم بعضا بالأمر الثابت الذى لا سبيل الى انكاره ولا زوال فى الدارين لمحاسن آثاره ، وهو الخير كله من الايمان بالله عز وجل واتباع كتبه ورسله فى كل عقد وعمل . (وتواصوا بالصبر) أى عن المعاصى التى تشتاق اليها النفس بحكم الحيلة البشرية وعلى الطاعات التى يشق عليها أداؤها ، او على ما يبلو الله عز وجل به عباده » .

ثم يضيف شارحا حكمة التواصى بالحق وبالصبر :

« .. لأن الأول عبارة عن رتبة العبادة التى هى فعل ما يرضى به الله تعالى ، والثانى عن رتبة العبودية التى هى الرضا بما فعل الله تعالى » (١) .

أما **الجانب الاجتماعى** لهذا المقتضى فتنفيذه رهين بالأحوال الاجتماعية للامة . فاذا كانت الأمة تتمتع بالحرية والاختيار وجب عليها أن تنتخب ممثلين عنها وتنيط بهم مهمة تنفيذ الأحكام . هذا هو المقتضى الذى اتبعه موسى — عليه السلام — فى صحراء سيناء ، حين قسم بنى اسرائيل الى اثنتى عشرة قبيلة أقام عليها اثنى عشر نقيبا . أما اذا كانت الأمة لا تتمتع بحرية التصرف الكاملة فيجب عليها أن تقيم على نفسها معلمين ومبلغين ، مثلما حدث مع مسلمى يثرب قبل الهجرة . فقد حضر ٧٥ من اهالى المدينة (بينهم امرأتان) بيعة العقبة الثانية ، وأسلموا على يدى النبى الكريم فأمرهم باختيار اثنى عشر نقيبا ففعلوا ، وكانوا ثلاثة من الأوس وتسعة من الخزرج ثم خاطبهم النبى قائلا : « انتم كفلاء على قومكم » (٢) . وهكذا كانت ادارة جعفر الطيار الذى كان امير المهاجرين الى الحبشة (٣) . وهكذا ، كان المسلمون كلما خرجوا من دار الاسلام ، يحاولون أن يقيموا لأنفسهم نظاما ذاتيا ، لتنظيم انفسهم واداء واجباتهم الشرعية تحت رئاسة أمير .

(١) أبو السعود ، ج ٥ ، ص ٢٨٣ ، ويراجع كذلك : تفسير الآلوسى ، ج ٣ ، ص ٢٢٩ .

(٢) الزرقانى ، ج ١ ، ص ٣٨٢ .

(٣) يراجع : سيرة ابن هشام .

رابعاً ـ نصرة الدين :

ان المقتضى الأخير الذى ينشأ عن العلاقة بين العبد وربه ، هو ما يمكن تسميته بـ « نصرة الدين » . ان نصرة الدين هى محاولة احياء او ابراز قيم او قضايا اسلامية تتعرض للانهيار أو الاختفاء او لمعاول الهدم ، وهى ما سمته الشريعة بـ « اعلاء كلمة الله » . انه عمل متعدد النواحى وليس له من وضع محدد . ان من نصرة الدين أن تبذل النفس والنفيس فى سبيل الله كلما تعرض دينه لمكروه ما ، وكلما كان فى حاجة الى جهد بشرى لاحيائه أو حفظه او تجديده . ان من اسمى المشاعر الانسانية الا يدع الرجل سوءا يلحق بأقرب أقربائه واعز احبائه ، وأن يحاول درء ذلك السوء أو يتحمله بنفسه .

عندما تآمر عرب الجزيرة على انهاء دعوة الرسول فوقف أصحابه الأكرمون لمواجهة تلك المؤامرة ، كان ذلك أول واسمى امثلة نصرة هذا الدين . وحين جاهد الخليفة الراشد عمر بن عبد العزيز ضد الفساد الذى تفشى فى أركان الدولة الاسلامية جهادا ، حتى أشربته الاسرة الحاكمة كأس السم ـ كان جهاده هذا من نصرة الدين . وحين خلقت الثروة والسلطة الفساد والترف فى الدولة الاسلامية فى القرن الثانى فتضعضع الايمان واضمحلت العلاقة بالله ، حاول حسن البصرى ـ وهو صورة الحزن والفقر ـ احياء جسد الأمة الميت ، فكان ذلك من نصرة الدين. وحين جرف تيار الفلسفة اليونانية بعقائد المجتمع المسلم ، وتمخض عن فتنة « خلق القرآن » انبرى الامام أحمد بن حنبل ـ واضعا حياته على كفه ـ يجاهد للدين الحق ، فكان ذلك من نصرة الدين . وفى القرن السادس حين بدات الدول الأوربية حملاتها الصليبية على دول الاسلام وتوغلت فيها « كما يتوغل الاسفين فى الخشب المتآكل » ، (على حد تعبير المؤرخ الانجليزى ستانلى لين بول) وقف صلاح الدين بعظيم جرأته وعزيمته الايمانية ، فطهر دار الاسلام من جور واحتلال الأقوام البيض ، كان ذلك من نصرة الدين . وهكذا وقف كثيرون ، وفى أحوال وظروف وقرون مختلفة ، يجاهدون فى سبيل الدين واصلاح الأمة ، بالأسلوب المتاح لهم ، ومن هؤلاء : الامام أبو الحسن الأشعرى ، الامام الغزالى ، الشيخ عبد القادر الجيلانى ، العلامة

ابن الجوزى ، شيخ الاسلام عز الدين بن عبد السلام ، ابن تيمية ، الشيخ احمد السرهندى ، الشاه ولى الله ، السيد أحمد البريلوى ، وآخرون كثيرون من العلماء الصالحين من ذوى العزيمة اثابهم الله خير ثواب . لقد وقف هؤلاء لصلاح الأمة وبذلوا أقصى جهودهم لذلك الهدف . انهم كلهم ناصرو دين الله ومساعدوه . ان لهم درجة عند الله عظيمة .

* * *

ان الأحوال هى التى تحدد نوع النصرة الذى يحتاج اليه دين الله فى وقت من الأوقات . وكذلك سوف تحدد ظروف الناصرين وقوتهم نوعية النصرة التى يمكنهم تقديمها لدين الله . ان الفرد غير مطالب بتقديم مالا يمكنه تقديمه . ان الذى يملك لسانه وعلمه ، سينصر دين الله بلسانه وعلمه ، والذى لديه القوة ووسائل التأثير الخارجية سيستعمل قوته لنصرة دين الله . ولتوضيح هذه النقطة ، سأختم هذا الفصل بالاقتباس التالى من شيخ الاسلام عز الدين بن عبد السلام (٥٧٨ ـ ٦٦٠ هـ) :

« قد امرنا الله بالجهاد فى نصرة دينه ، الا أن سلاح العالم علمه ولسانه ، كما أن سلاح الملك سيفه وسنانه ، فكما لا يجوز للملوك اغماد سيوفهم عن الملحدين والمشركين ، لا يجوز للعلماء اغماد ألسنتهم عن الزائغين والمبتدعين » (١) .

(١) طبقات الشافعية الكبرى ، لابن السبكى ، ج ٥ ، ص ٩٠ .

الفصل السادس

الدين أصـــول وفروع

ان الله تعالى يأمرنا بأن نحاول فهم التعاليم التى نزل بها الأنبياء وان نتبعها : **« لقد كان لكم فى رسول الله أسوة حسنة »** ، **« فبهداهم اقتده »** . ولكننا حين ندرس تاريخ الرسل لتعين عناصر الدين ، تعترضنا مشكلة كبرى ، وهى أن حياة الرسل وتعاليمهم ليست علما على مجموعة واحدة معينة .

ان التعاليم السماوية لم تنزل على الرسل مرة واحدة ، بل نزلت عليهم بالتدريج حسب أحوال المسلمين . وعلى هذا الأساس تنقسم حياة الرسول الكريم الى حقبتين هامتين : عصر ما قبل الهجرة ، وعصر ما بعد الهجرة .

ان الوحى الذى نزل على الرسول قبل الهجرة كان يشمل التعاليم الأساسية للدين ، وقد ظل مثل هذا الوحى ينزل عليه اكثر من عشر سنوات وكان المطلوب من النبى الكريم خلال هذه المدة ان يتبع تعاليم الوحى وأن يدعو الناس اليها ، ويعلمها لأصحابه . وعندما هاجر النبى الكريم الى المدينة المنورة حصل المسلمون على « التمكين » ، وحينذاك ، فقط ، بدأت التعاليم السياسية والاجتماعية تنزل عليه . ويتضح من هذا ان معنى الدين ومقتضاه قد اختلف فى المدينة عنه بمكة ، حين كان المسلمون لا يزالون ضعفاء .

ان هذه الحقيقة تصبح أكثر اثارة لامعان النظر فيها حين ندرس تاريخ الأنبياء الآخرين ، فنجد أن هذه النوعية المرحلية للوحى قد وجدت عند جميع الأنبياء . وزد على ذلك أن نصيب كثير من الأنبياء من الوحى اقتصر على تعالم المرحلة التى سبقت الهجرة النبوية . ان الأنبياء الكرام الذين عاشوا المرحلة الأولى من الوحى ، فحسب ، لم تنزل عليهم الأحكام التى تنفذ بعد التمكين والحصول على السلطة . أما الأنبياء الذين عاشوا المرحلة الثانية أيضا ، فقد نزلت عليهم التعاليم السياسية والاجتماعية التى تنفذ بعد حصول التمكين فى الأرض .

هذا هو الفرق الذى ينشأ عن الظروف الخاصة التى يواجهها نبى من الأنبياء . وهناك فرق أيضا فى تعاليم المرحلة الثانية ،

وهو ينشأ عن الظروف السياسية والاجتماعية الخاصة التى يواجهها نبى من الأنبياء ، والتى قد تتطلب تغييرا ما فى تعاليم المرحلة الثانية .

أما تعاليم المرحلة الأولى – الأساسية – فهى كلها واحدة لدى جميع الأنبياء لا تختلف باختلاف الظروف ، وقد نزلت على جميع الأنبياء بأسلوب واحد . لا خلاف بين تعاليم الأنبياء الا فى قضايا المرحلة الثانية ، وهى الخاصة بالشئون الاجتماعية والسياسية. وبعبارة أخرى يصح لنا القول : « اتبعوا تعاليم الأنبياء » اذا كنا نقصد بذلك تعاليم المرحلة الأولى الموحى اليهم ، أما اذا كنا نقصد بذلك تعاليم المرحلة الثانية ، أيضا ، من الوحى ، فذلك أمر لا يجوز ، لأن التعاليم السياسية والاجتماعية للأنبياء اختلفت من عصر الى عصر ومن مجتمع الى مجتمع .

ولا يعنى هذا البحث اننا نجهل اليوم الشريعة المطلوبة منا تنفيذها . لقد اثرنا هذه القضية لايضاح حكمة التعاليم النبوية ، وليس للبحث عن مشيئة الله اليوم . لأن المعلوم أن شريعة رسول الاسلام قد نسخت جميع الشرائع السابقة ومثال ذلك أنه لا يجوز لوصى أحد المسلمين المتوفين أن يدعى أنه لن يقسم الميراث على الورثة ، لعدم وجود قانون سماوى واحد للوراثة . أنه يجب عليه تقسيم الميراث فى ضوء شريعة محمد صلى الله عليه وسلم .

مع الاتفاق الكامل مع المبدأ الآنف الذكر يثور هنا السؤال الآتى : هل نحن مكلفون بأحكام الشريعة طبقا لمراحل نزولها عند ظهور الدعوة ؟ وبكلمة أخرى : هل نحن مكلفون بها كتكليف اتباع الأنبياء بها (الذين كلفوا بنوع من الأحكام ، ثم كلفوا بالباقى.) ، ام أن الواقع قد تغير بنزول القرآن الكريم ، ولم نعد مكلفين بالأحكام طبقا لمراحل نزولها ، بل نحن مكلفون بجميع الأحكام مرة واحدة ، وواجبنا تجاه هذه الأحكام ان نجاهد لتنفيذها كاملة فور ايماننا بها .

ان هذين السؤالين يمثلان منهجين مختلفين لدراسة الدين .

ان المنهج الأول يرى انه يمكن فهرسة التعاليم النبوية تحت

بابين عامين ، « أصل وشرح له » ، بينما يقسم **أصحاب المنهج الآخر** هذه التعاليم الى **« بدء وتكميل له »** ..

ان المنهج الثانى الذى يعتبر ان النسبة الصحيحة بين الأحكام الدينية هى نسبة البداية والتكميل لها ، انما يجعل النسبة كالتى توجد بين الشتلة (الشجيرة) والشجرة . فالشتلة هى الصورة الأولية البدائية للشجرة الكاملة ، والشتلة لا تكتمل دون الوصول الى كمالها فى ثوب الشجرة . أما الشتلة التى لم ترق الى صورة الشجرة فستظل منقوصة غير كاملة ، دون التى انتهت الى الشجرة فبلغت الكمال .

ان استدلال المنهج الثانى صحيح فيما يتعلق بمرحلة تنزيل الأحكام على الأنبياء ، فقد وجد فيها البدء والتكميل . ولكن هذا الاستدلال لا يمكن قبوله لو أريد به شرح المطلوب من عباد الله ، ومرده الى أسباب عديدة :

أولا : ان القول بالبدء ثم التكميل فى الأحكام ، يعنى اننا نعتبر دين بعض الأنبياء ناقصا ، ودين البعض الآخر منهم كاملا ، بالرغم من المبدأ الالهى الثابت : **« لا نفرق بين أحد من رسله »** ، وبالرغم من أن الله تعالى يعتبر جميع الأنبياء مهديين على مستوى واحد :

« كلا هدينا ونوحا هدينا »

ثانيا : يعنى هذا المنهج اننا ــ معشر المسلمين بصفتنا حملة الأمانة اليوم ــ نوجد فى مركز لم يتمتع به احد فى الأزمنة الغابرة حتى الأنبياء انفسهم . فقد كان الأنبياء ناقصين فى ضوء هذا المنهج ــ حيث كانوا يعرضون على اقوامهم اديانا ناقصة طيلة دعوتهم ، ومن حظى منهم بالدين الكامل فى حياته لم يحصل عليه الا فى أواخر أيامه . وباعتبار هذا المنهج ، تكون حياة معظم الأنبياء (وأكبر أجزاء حياة البقية الباقية منهم ايضا) : ناقصة ، بينما نحن نزعم التمتع بالدين الكامل من أول يوم بدئنا الدعوة .

ثالثا : ان القول بهذه النسبة بين أحكام الدين يقتضى منا ــ مهما كانت ظروفنا الاجتماعية وحيثما كنا ــ أن نبدأ من فورنا فى

الجهاد لأجل تنفيذ كل أجزاء الدين المنزلة .. ناهيك ان القرآن ولا السنة يأمرنا بمثل هذا الجهاد ، ولن يكون عصر الاسلام الأول نموذجا مناسبا لهذه الدعوة .

وفى ضوء هذه الحقائق نصل الى ان القول بأن النسبة بين احكام الاسلام هى نسبة « الأصل والشرح للأصل » : هو التفسير الصحيح لهذه القضية .

ويمكننا ان نفهم هذه القضية بوضوح فى ضوء مثال الروح والجسد . ان الروح وجود كامل ، بل هو الأصل فى الوجود البشرى . ولكن هذا الأصل لا يظهر فى العالم المادى الا متقمصا صورة الجسد . ان عدم وجود الروح فى جسد ما أو نقصان أجزائه فى جسد آخر ، لاينفى الروح نفسها . ان أسباب النقصان تكمن فى نقصان تربية صاحب الروح ، فمن الممكن ان تكون الروح ناقصة وهى فى جسد صحيح ، بينما من الممكن أيضا ان تبلغ الكمال وهى فى جسد ناقص عاجز .

اننا لو سلمنا بهذه النسبة بين نوعيتى الأحكام الدينية ، سنفهم السر فى نزول أحكام النوعية الأولى على جميع الأنبياء ، فى بداية الوحى ، وكذلك نفهم السبب فى اقتصار معظم الأنبياء على تعاليم هذه المرحلة الأولى . فالمطلوب الأساسى هو هذه النوعية الأولى من أحكام الدين ، اما الاجزاء الاخرى (النوعية الثانية) فمطلوبة بحسب الأحوال والظروف ، وليس بصفة كلية مطلقة .

ان تسليمنا بهذه النسبة بين نوعيتى أحكام الدين ، يقضى على العقدة المستعصية التى بمقتضاها تجرأ بعضهم فاعتبروا بعض الأنبياء (ناقصين) لأنهم لم ينزلوا الا مع احكام النوعية الأولى) . ان جميع هؤلاء الأنبياء نزلوا بالأساس من الدين ودعوا شعوبهم اليه وقضوا أيامهم فى ضوء مقتضياته .

ثم ان قبولنا بهذه النسبة بين أحكام الدين يزيل الفرق الذى ينشأ بين اتباع الدين الاسلامى وبين الأنبياء . اننا بقبولنا هذه النسبة نقبل تلقائيا ان بداية عملنا هى التمسك بأصل الدين ،

وهو ما فعله الأنبياء ، ثم نصل الى بقية أجزاء الدين ، طبقا للأحوال ، كما فعل الأنبياء أيضا حين أتيحت لهم الظروف الملائمة .

وسأنقل هنا بعض ما كتبه الامام الرازى فى هذا الصدد مبينا ان الفرق بين تعاليم الأنبياء هو فى الأصول والفروع :

« وردت آيات دالة على عدم التباين فى طريقة الأنبياء والرسل ، وآيات دالة على حصول التباين فيها . (أما النوع الأول) فقوله ، (شرع لكم من الدين ما وصى به نوحا) الى قوله (أن أقيموا الدين ولا تتفرقوا فيه) وقال (أولئك الذين هدى الله فبهداهم اقتداه) . (وأما النوع الثانى) فهو هذه الآية : (لكل جعلنا منكم شرعة ومنهاجا) (المائدة) ، وطريق الجمع أن نقول : النوع الأول من الآيات مصروف الى ما يتعلق بأصول الدين ، والنوع الثانى مصروف الى ما يتعلق بفروع الدين » (١) .

ان الأجزاء التى يعتبرها الامام الرازى « فروعا » للدين ، ليست مما يمكننا أهمالها ولا يمكن اعتبارها غير هامة فى هيكل الدين . ان هذا الفرق ينشأ من ناحية النوعية وليس من ناحية التشريع . ويتضح من هذا أن « أصول » الدين مطلوبة من كل مؤمن راشد ، ولا يمكنه أن يستحق رضا الله دون اتباعها . أما الفروع ، فليست مطلوبة بصفة مطلقة ، بل تفرضها الأحوال المحيطة بالمسلم ، تماما كما أصبحت مطلوبة من صاحب الوحى فى أحوال معينة وليس قبلها .

ان هذا الفرق بين الأصل والفرع يقوم حين لا يكون الفرع مطلوبا بعد ، أما حين يكون الفرع مطلوبا من المسلم فلا يكون هناك فرق من ناحية الأداء بين الأصل والفرع من الدين ، أى أن كليهما يكون مطلوبا حينئذ بنوع واحد من الأهمية والشدة .

---

(١) التفسير الكبير ج ٣ ، ص ٦٠٨ .

ويمكن أن يثار هنا سؤال آخر ، وهو أنه اذا كانت النسبة بين الأحكام هي نسبة الأصل والشرح له ، فما تفسير آية اكمال الدين (سورة المائدة) ؟ لقد بحث المفسرون فى هذه القضية ، ولكنهم لم يقبلوا فى صدد تفسيرها فكرة البدء والتكميل للدين ، لأنهم قد تنبهوا الى أننا سنضطر عند قبول هذه الفكرة الى القول بأن الدين كان ناقصا قبل نزول آية الاكمال . وسوف انقل هنا ، مرة أخرى ، كلمات الامام الرازى التى يمكن اعتبارها خلاصة بحث المفسرين فى هذه القضية :

« فى الآية سؤال ، وهو أن قوله : « اليوم اكملت لكم دينكم » يقتضى أن الدين كان ناقصا قبل ذلك ، وذلك يوجب ان الدين الذى كان صلى الله عليه وسلم مواظبا عليه أكثر عمره ــ كان ناقصا ، وانه انما وجد الدين الكامل فى آخر عمره مدة قليلة ، واعلم أن المفسرين لأجل الاحتراز عن هذا الاشكال ذكروا وجوها :

« **الأول** : ان المراد من قوله : اكملت لكم دينكم ، هو ازالة الخوف عنهم واظهار القدرة لهم على أعدائهم ، وهذا كما يقول الملك عندما يستولى على عدوه ويقهره قهرا كليا : اليوم كمل ملكنا . وهذا الجواب ضعيف ، لأن ملك ذلك الملك كان قبل قهر العدو ناقصا .

الثانى : أن المراد انى اكملت لكم ما تحتاجون اليه فى تكاليفكم من تعليم الحلال والحرام ، وهذا أيضا ضعيف ، لأنه لو لم يكمل لهم قبل هذا اليوم ما كانوا محتاجين اليه من الشرائع كان ذلك تأخير للبيان عن وقت الحاجة وانه لا يجوز .

الثالث : وهو الذى ذكره القفال ، وهو المختار ، ان الدين ما كان ناقصا البتة ، بل كان أبدا كاملا ، يعنى كانت الشرائع النازلة من عند الله فى كل وقت كافية فى

ذلك الوقت ، الا انه تعالى كان عالما فى أول وقت المبعث بأن ما هو كامل فى هذا اليوم ليس بكامل فى الغد ولا صلاح فيه ، فلا جرم كان ينسخ بعد الثبوت وكان يزيد بعد العدم ، وأما فى آخر زمان المبعث فأنزل الله شريعة كاملة ، وحكم ببقائها الى يوم القيامة ، فالشرع ابدا كان كاملا ، الا أن الأول كمال الى زمان مخصوص والثانى كمال الى يوم القيامة . فلأجل هذا المعنى قال : اليوم اكملت لكم دينكم » (١) .

ويعنى هذا أن ما يكون مطلوبا من مؤمن ما فى ظرف من الظروف ، هو الدين الكامل المطلوب منه ، فى ذلك الظرف .

اما الدين الكامل ، والذى نزل نهائيا ، فهو الذى يراعى احكام جميع الأحوال الممكنة الحدوث بالنسبة للمؤمن ، وتكون مطلوبة منه كلما كان فى استطاعته تنفيذها . فاذا كان احد المؤمنين كامل الايمان والتقوى ، فهو صاحب الدين الكامل .. اما اذا حدث ولم يكتمل لديه النصاب حتى يدفع الزكاة ، ولم تحن الفرصة حتى يحضر فى المحكمة ليدلى بالشهادة الصادقة ، ولم تسمح له الظروف بتقسيم التركة ، فان هذه الحالات لن تؤثر فى كمال دينه ، لأنه يؤمن بجميع الأحكام ايمانا صادقا ، وهو مستعد فى قرارة قلبه لتنفيذها كاملا ، كلما خلق الله له ظروفا تستدعى ذلك .

والله الهادى الى سواء السبيل

---

(١) التفسير الكبير ، ج ٣ ص ٥٢٧ – ٥٢٨ .

الفهـــرس